والله غالبٌ على أمرِه

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: والله غالبٌ على أمرِه
اسم المؤلف: عليٌّ بن محمد
التدقيق اللغوي: منى الضايع
تصميم الغلاف: محمد دربالة
الإخراج الداخلي: خالد محمود
رقم الإيداع: ١٥٥١٢ / ٢٠٢٢
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٨٧٤-٩٠-٩



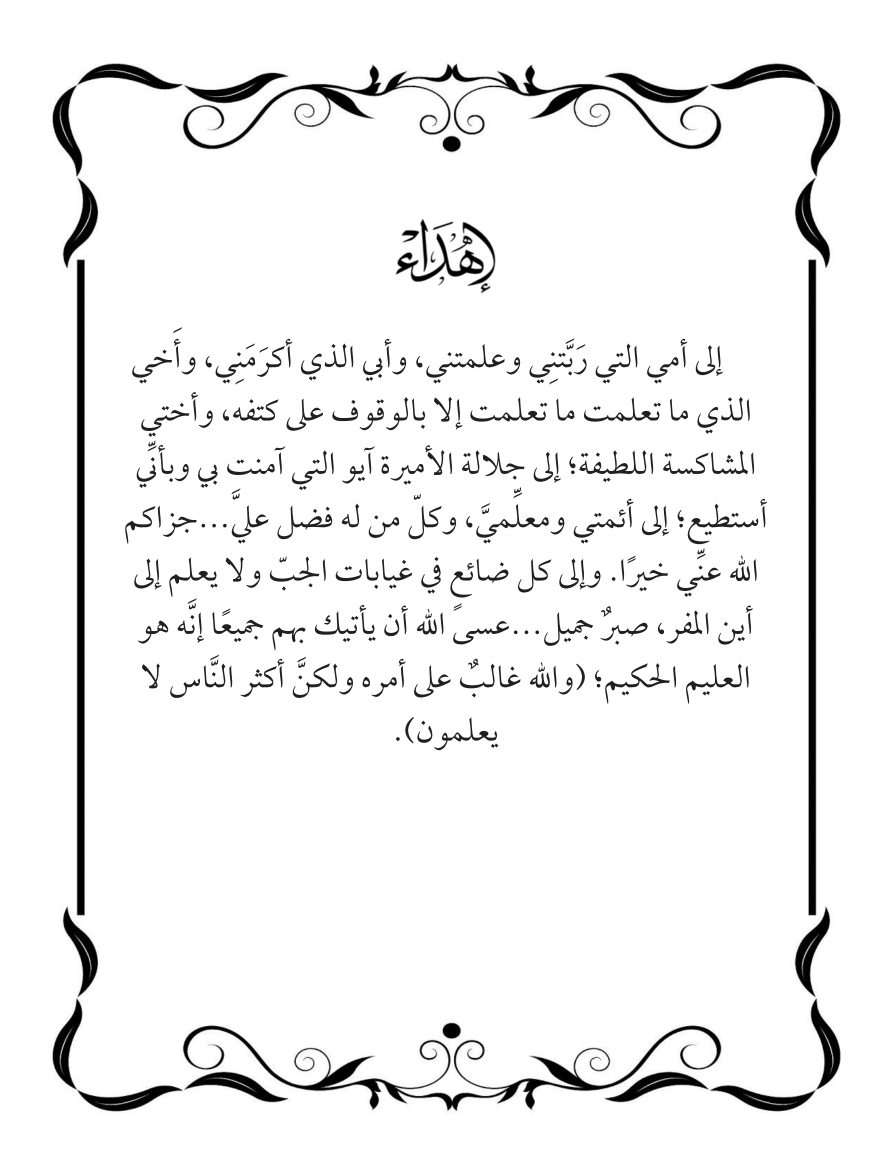

ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

01020439639

massar.pub1@gmail.com

واللّه غالبٌ على أمرِه





إهداء

إلى أمي التي رَبَّتنِي وعلمتني، وأبي الذي أكرَمَنِي، وأَخي الذي ما تعلمت ما تعلمت إلا بالوقوف على كتفه، وأختي المشاكسة اللطيفة؛ إلى جلالة الأميرة آيو التي آمنت بي وبأنِّي أستطيع؛ إلى أئمتي ومعلِّميَّ، وكلّ من له فضل عليَّ...جزاكم الله عنِّي خيرًا. وإلى كل ضائع في غيابات الجبّ ولا يعلم إلى أين المفر، صبرٌ جميل...عسىً الله أن يأتيك بهم جميعًا إنَّه هو العليم الحكيم؛ (والله غالبٌ على أمره ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون).

كلُ مَخلوق مغلوبٌ على أمرِه، (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعلَمُونَ)

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدي رسول الله -ﷺ

ثُمَّ أمَّا بعد...

فقد تتجاذبك أقدار الحياة حتى تحسب أنَّها ستمزقك إربًا، وقد تضيق بك حتى لتظنَّ أنَّ السماء قد انطبقت على الأرض، وقد تستحكم حتى إنَّك ليُخَيَّلُ إليك أنها لم تخلق بمفتاح، وقد تجد أنَّ كل الظروف تقودك إلى الهاوية لا محالة...ولكن في لحظة ما تجد أنَّ الأمور قد بدأت بالتحسن.

أجل...عزيزي القارئ، وسيدتي القارئة؛ (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ). وقد وعد الله -ووعده الحق سبحانه وتعالى- أنْ (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا). وقد جعل الله لنا من قصص الأنبياء عبرةً وعظة، وتسلية للنفوس المصابة بالبلاء؛ فالأنبياء هم أكثر الناس بلاءً، وأحسنهم مقامًا، وأفضلهم جزاءً؛ (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب).

في هذه الرواية، حاول الكاتب أن يوصِّلَ رسالة مفادها ما سبق ذكره، ولكن بطريقة قصصية روائية تسلِّي النفوس، وتجلي الهموم، وتضمم الجراح، وتَذهب بالنفوس إلى الأمل في الله: مفتاح الحياة،

والصبر الجميل: سلاح المسافرين في صحراءها، والتقوى: زاد الطريق.

في هذه الرواية تجد المغامرة، والتشويق، والإثارة، بطابع ديني إسلامي عربي أصيل، ولمسة رومانسية عفيفة، وفكر فلسفي بسيطٍ، وإسقاطٍ على الواقع المعيش، وأمل في مستقبل مشرق، بخايل طفل حالم.

في هذه الرواية، أهمل الكاتب الحقائق والأحداث التاريخية في التواريخ المذكورة، وما التواريخ المذكورة إلا لتضيف عامل الزمان إلى المكان.

هذه الرواية لا تسعى للهجوم أو التعريض بأي شخص أو كيان، ولكنَّها تسعى لأن تكون ذات تأثير إجابي في المجتمع، ونفعٍ للإسلام والمسلمين؛ فما كان فيها من خير فهو توفيقٌ الكريم الرحمن، وتيسير من ذي الفضل المنان، وما كان من خطأٍ، أو زلل، أو سهو، أو نسيان، فمني ومن الشيطان، والله ورسولُه منه براء، والله المستعانُ؛ وأعوذ بالله من أن أكون جسرًا يُعْبَرُ به إلى الجنة، ثُمَّ يُلقى به في النَّار؛ وأعوذ بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب؛ وأفوِّضُ أمري إلى الله، إنَّ الله بصيرٌ بالعباد.

هذا، وصلى الله وسلم على خير المرسلين، وعلى آله وصحبهِ أجمعين، والحمد للهِ رُبِّ العالَمِينَ.

ملحوظة:

هذا الكتاب يحتوي على آيات قرآنية كريمة، وأحاديث نبوية شريفة، فحافظ عليه من أي شيء قد يُسيء لمحتواه.

الفصل الأول:
أُمَمٌ أمثالُكم

مدينة شُرَيْقَة - خريف عامِ ١٤٤٢ ميلاديًا / ٨٤٤ هجريًا:

- روميلو...سنتأخر.

- ياسر...لقد اخبرتك ألف مرة أن تناديني رامي لا روميلو، أم تحب أن أعود لمناداتك سيريوس...ها؟

- حسنًا...حسنًا يا رامي...كنت أمازحك يا رجل؛ ولكن أسرع لكي ندرك مكانًا قريبًا من الإمام ابن فِراس.

كان الفتيان يتسابقون من جميع منازل شُريقَة، وكان الشباب يُهرَعون إلى ناديهم هرعًا أن يدركوا مكانًا في خيمة القصّاصين، حيث تحلق الشيوخ والشباب والصبيان في نصف دائرة للرجال تليها نصف دائرةٍ أخرى للنساء ليسمعوا من الإمام قاسم بن فِراس الذي عاد لتوه من أحد رحلاته المتكررة في صحراء العرب.

كانت الجلبة تعمُّ خيمة القصاصين، تلك الخيمة التي يجتمعون فيها عادة ليسمعوا قصص مغامريهم، أوقصصًا عن تاريخهم، وأحيانًا لا تكون إلا للتسامر ليلًا.

أهل شُريقَة هم من محبي مجالس الأُنس والتسامر؛ ولا يحبون شيئًا أكثر من مجالسهم في الطرقات ليلًا على أضواء القناديلِ، أو نهارًا تحت ظلال الأشجار المنتشرة في المدينة؛ حتى أبدَلهم الله فهمًا، ورزقهم من هدي نبيهم - ﷺ - خُلُقًا، فكفوا أذاهم عن الطريق، وغضوا عن سالكيه أبصارهم بضرب خيمةٍ في مكان خلاء، فلا يُعيقون مارًا ولا يُؤذون جارًا.

- حضر الإمام!

- حضر الإمام!

همهم الحضور حين لمحوا الإمام ابن فِراس داخلًا في وقار وهيبة بردائه الأزرق الطويل الذي يلامس كعبيه، وعمامته البيضاء التي تلف رأسه فكأنما هو بين السحاب، وإزاره الأبيض المتواري خلف ردائه، وحزامه البني المطرَّز بالأخضر الذي يحيط بخاصرته كأنَّه فرع شجرة يحتضنه وما حوله زرقة من صفاء السماء. كان للإمام لحية سوداء كثيفة تتخللها بضع شُعيرات بيضاء أصابته من عنت ما كابد في حياته، ولكنها كانت كالنجوم في سماء الليل الحالكة، فكان منظر الإمام دائمًا باعثًا على الطمأنينة والسكينة والأمل في نفوس مبصريه. وصل الإمام وقد نالت منه شمس الصحراء نصيبًا، وتعب السفر وإرهاقه كان لهما أوفر النصيب.

جلس إمامهم في وسطهم، فكان كلؤلؤة توسطت عقدها، ووزَّع عينه بينهم كأنما يبحث عن أحدهم، ثمّ أغمض عينه في حسرة، ثم

فتحهما متصدقًا بابتسامة في وجوه جلسائه، ثُمَّ قال:

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها الأهل والأحباب.

فكانت هذه الكلمة غنيمةً لهم كأنما أُعطوا الذهب والفضة.

– سيدي الإمام قاسم...حدثنا عن رحلتك.

– أيها تقصد؟

– رحلة الأطلال.

كان سؤال الصغير كدفعة قوية أعادته للماضي السحيق. صحيحٌ هي ليست إلا عشرون سنة قد مضت عليها، ولكنها في حسابه ماضٍ قديم مليء بالأحداث.

هزّ القوم رؤوسهم موافقين اقتراح الصبي ثم لاحظوا أغماض الإمام ابن فِراس لعينيه، فمدوا رقابهم يرقبون ردّه، فإذا به يبتسم ثم يفتح عينيه في هدوء.

– لك ما أردت يا غلام. وسأزيدكم على عمري عُمْرَ أبي فتلك بداية الحكاية. أعيروني أسماعكم، وأبصاركم، وأفئدتكم.

سكن القوم مطرقين كأنّما على رؤوسهم الطير.

–بدأ الأمر بفتىً صغير...

***

مدينة أوستين -شتاء عام ١٣٨٥ ميلاديًا/ ٧٨٧هجريًا:

- فِراااس...
- لبيك أُمَّاه!
- اذهب وأحضر لنا الحطب من السوق لنصطَلَ به ليلًا...ولا تنسَ أن تحلب الماعز بعد ذلك.
- حسنًا يا أُمَّاه. الحطب ثم الماعز، الحطب ثم الماعز...

كان فِراس يُعاني من كثرة النسيان، ليس لمرض، ولكن لشروده الكثير، وهو ما كان نتيجة لكثرة تلفته فيما حوله على طول الطريق، فكان يقوم بتكرار الأشياء، ويقَضْب جبينه كأنما يقوم بحساب حصاد العام في أوستين. كان يؤمن أنه إذا فَعل هذا، فإن عقله سيتذكر تلقائيًا الشي الذي يريده بعد أن ينجز ما هو مرتب قبله في قائمة المهام المُعَدَّةِ في عقله. ولكن...لا؛ لم تكن هذه الطريقة تفلح كثيرًا، فكانت أمه كثيرًا ما توبخه، وشاع بين أصحابه أن ينادوه بالفتى التائه.

فِراس فتىً حالمٌ في الثالثة عشر من عمره. كان طويل النَجاد، رفيع العماد، وكان ذا شعر طويل كثيف ليس بالناعم المنسدل، ولا الأجعد المنعقد، بل كان متراكبًا بعضه على بعض، وكان وجهه مدورًا يحوي أنفًا رفيعًا، وعينين واسعتين، وكان لونه كلون حَبَّة فول غامقة.

كانت أوستين مدينة زراعية، خلابة المنظر، تأسر الألباب، وتسحر العيون، فكانت تستحق تلفت فِراس المتكرر في أرجائها، وطرقاتها، وهي لم تكن بالمدينة ذات المعالم الجامدة، فقد كانت ملامحها -التي

تتشكل من مزارعها ونباتاتها- تتنوع بتنوع الفصول؛ فتجدها خضراء فاقعٌ لونها ربيعًا مزهرة بهيجة المنظر، ثم تبهت الخضرة قليلًا صيفًا، فتصفرُّ خريفًا ويبدأ تساقط ورقها، ثم تصير أشجارها عارية من أوراقها شتاءً وتكتسي الأراضي بمحاصيل الشتاء متباينة الألوان.

تقع أوستين في وسط غرب جزيرة العرب، وهي مدينة واسعة الأنحاء، تحيط بها الصحراء من شرقها وجنوبها وشمالها، ولكن يوجد سياج من الأشجار الوارفة الطويلة التي تحول بين المدينة والبيداء؛ ويحدها بحر من غربها، إلا أن أهلها لا يستطيعون رؤيته، حيث يحجبهم عنه جبلٌ مهيب المنظر، شامخ العلو، تكسوه الخضرة -كما سائر المدينة- يُدعى بجبل الشامة؛ وقد سميَ بالشامة لأنه كان إذا نظر إليه ناظِرٌ من بعيد، رآه أخضرَ مميزًا عما حول المدينة من الصحراء.

عمد فَراس إلى أخذ الطريق الطويلة حتى يتسنى له بعض الوقت لينظر في جمال مزارع أوستين، ويفكر في مستقبله في هدوء بعيدًا عن بكاء أخته الرضيعة، وأخته الأخرى ذات الأعوام الخمس والتي كانت دائمًا ما تزعجه بصخب ضحكها ومحاولة اللعب معه متحججة بوحدتها، وأن أختها رضيعة لا تستطيع اللعب معها، وأمهم مشغولة وليس لها إلا هو ليسليها، فهي لا تخرج كثيرًا خوفًا من أمها عليها.

كانت أمهم هي من تعول البيت بعد أن مات جودِيٌّ -والِد فِراس- وفي أوستين العمل عمل اليد. كان فِراس يُفكر في أن يعمل مع جاره في حقله ولو بأجر زهيد ليتعلم منه الزراعة، ليشرع في زراعة أرض والده

القديمة والتي لم تقوى والدته على زراعتها، فأجرَّتها لجارهم ذاك مقابل ثُلث خراجها.

كان جارهم هذا يحاول التوسع بأرضه والاستيلاء على أرض جوديّ بعد موته، ولكنه لم يفلح في الضغط على والدة فِراس لبيع الأرض له، فرضي بالإيجار إلى حين. كان هذا الأمر طبيعيًا في مجتمع أوستين، فقد كان العاملون بالزراعة هم الأثرياء، أمَّ التجار فيعملون لديهم، وهم بمثابة الموزعين لما جنته أرضِ المزارعين، وكان صاحب الأراضي الزراعيةِ الأكثرِ، هو الأكثر نفوذًا في البلاد وكانت هذه طريقة اختيارهم لسادتهم وكُبرائَهم.

ملك أوستين الحالي هو رجل له من الأراضيٍ ما يساوي سُدس أراضي أوستين، وهذا لو تعلمون عظيم؛ كان رجلًا قوي البنية، شديد التعامل، حازم الرأي، عادلًا في حكمه إلا إذا تعلق الأمر بشخص تتزايد نفوذه في البلاد، فإن هذا يَجْرِمُه على ألا يعدل.

لم يُعهد عن أوستين وأهلها أنَّهم أهل قوس وسيف، فقد كانوا أهل معول وفأس، ولكنَّهم ذوو شأنٍ عظيم بين المدائن والممالك، ويُحسب لهم من الحساب ألفًا، فبدون زروعهم، تهلك باقي المدائن والأمصار، أو تضطر إلى أن تستهلك وقتها ومجهودها فيما يوفره لهم أهل أوستين مقابل بعض الخيرات الطبيعية التي تنقص أوستين وتفيض في غيرها.

كانت والدة فِراس أمرأة ضخمة البدن، ممتلئة الجسد لا تقوى على الزراعة ولا مشقتها، فكانت تعمل في صناعة السمن والجبن من ألبان

معيزها التي ترعاها من إيجار أرض زوجها الراحل؛ وأمَّا فِراس فمع عمله مع جاره في الزراعة، كان يعمل مع الحطاب ساعة، والنجار تارة، وأُخرى في الحدادة محاولًا تعلم أي مهنة تساعده في إعالة أهله، فقد شب ولا بدّ له من أن يتحمل المسؤولية، فشَابَهُ لذلك القلق، واستحوذت عليه هموم فاقت سنه.

نظر فِراس في السماء وطيورها التي لطالما كانت تزين سماء أوستين، فتذكر حديثًا عن النبي - ﷺ - كان قد سمعه في خطبة الجمعة من إمام مسجد الزيتون يقول فيه ﷺ: (لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله، لرزقكم كما تُرزَق الطير: تغدوا خماصًا، وتروح بطانًا.)؛ فاطمئن أن له رَبٌّ إذا عملت من العملِ ما تُطيق، ووثقت فيه متوَكِّلًا عليه، فسوف يرزقك لا محالة...(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ)؟

- لا تقلق يا فِراس؛ فالطير، يُرزَقُ بالعمل لا بالقلق.

مطمئنًا نفسه، ختَم فِراس حوار خواطره إذ وصل للحطاب، فأحضر من عنده الحطب بخمس دراهم ثم عاد إلى البيت يجري بين الأشجار والنخيل، ولكن هذا لم يمنعه من أن ينسى حلب الماعز، مما أدى إلى أن ينال التوبيخ من أمه، وخُطبَة عن تحمل المسؤولية.

كان الناس في أوستين يمتلكون المعيز والخراف والأبقار ويستخدمونها في الرعي، وكانت لديهم بعض الإبل التي اقتصر دورها عندهم على السفر للتجارة مع المدن والبلدان المجاورة؛ فقد كانوا يبيعون بعضًا مما يزرعون -بعد أن يَكْفُوا حاجتهم- إلى مدينة الحكمة

ويستوردون منهم الورق والحبر والتوابل، حيث كانت هذه المدينة مشهورة بصناعتهم؛ ولم يكن الأمر في التجارة حكرًا بينهم وبين مدينة الحكمة فقط، فقد كانوا يتاجرون مع مملكة كارمينيا، فيعطونهم من زروعهم التي تؤكل والكتان والصوف والحرير والقطن، فتصنّع في كارمينيا -والتي اشتهرت بصناعتها للملابس، وصباغتها، ونبوغهم في ابتكار الأسلحة الحديثة، وتقدمها في علم الخيمياء- ثم يشترونها منهم ملابس جاهزة ملونة بألوان ملابسهم التقليدية والتي كانت جلابيب قطنية بيضاء مُطَّرَزَةً بالأخضر مع عمائم زرقاء سماوية؛ أمَّا النساء فكن يتزينّ بالأساور الذهبية وجلابيب صفراء وسوداء، حيث كن يحببن التشبه بزهور دوار الشمس وبالنحل، فنعم المخلوقات هي قدوةً في العمل والكد والجِد.

ملّ أهل أوستين من أكل خراج زروعهم فقط، فكانوا يريدون أن يضيفوا بعض المتعة إلى غذائهم اليومي، وكما هو بادٍ فلا يمكنهم أن يتناولوا من إبلهم -وسيلة سفرهم- ولا معيزهم أو أبقارهم -إلا قليلًا- التي كانت تدر عليهم اللبن وتحرث لهِم الأرض. ولقد كانوا يمتلكون أيضًا الأحصنة الأصيلة والتي كانت تُجلَب من مدينة الحكمة؛ فكانت وسيلة تنقلهم الداخلي إلى جانب الاستخدام الأساسي للحمير في هذا الأمر.

لم يروا حَلًا على الأرض فرأوا أن يولّوا وجوههم شطر السماء. قرر أهل أوستين ومترفوها أن يصطادوا من طيورها الغزيرة التي تقطع

سمائهم جيئة وذهابًا، فكان هذا الحل هو الأمثل. أوستين بسمائها الصافية صيفًا، وجوها المعتدل سائر العالم -إلا شتاءً حيث يصبح الجو شديد البرودة، كثير المطر- كانت القبلة الأمثل للطيور من كل حدب وصوب؛ فكان الطير يأكلون من زروع المدينة ولا يفسدونها، ورضي الناس ذلك، واصطادوا من الطير باعتدال، وبقوانين صارمة تحدد مواسم الصيد ونسبًا محددة له، كي لا ينقرض الطير في المدينة.

تعايش الناس والطير على هذه الحالة، وأحب الناس الطير وجعلوها رمزًا لهم على راية المدينة، وكان لكل طفل نُغَيرًا يربيه ويتفاخر به أمام أقرانه أنه يطعمه ويهتم به أكثر مما يفعل الباقون. كانت الحياة في أوستين حياة أقل ما يقال عنها رَغِدة وهنيئة، وكانت نعم الله عليهم لا تُعَدّ ولا تُحصى...ولكنّ الإنسان كفور.

يُقال أنَّ الفقر أساس الشرور كلها، ولكن الحقيقة هي أن الطمع هو أساس الشر في العالم؛ فالفقراء والأغنياء بينهم الطيِّبُ والخبيث، إلا أن كل ذي طمع هو خبيثٌ أثيم. والطمع أخو الإسراف؛ فالإسراف وإن بدى في ظاهرِه أنه عكس الطمع، حيث تخرج ما لديك بإسهاب، إلا أن الإسراف نابع من طمع زائد لشيءٍ آخر تريد أمتلاكه أكثر من اللازم، فتسرف في أنفاق شيء آخر تملكه زاهدًا فيه لتحوز أكثر من شيء آخر تُريده، ولكل شيء ثمن.

بدأ الأوستينيون في التفكير في بيع الطيور للمدن والقرى المجاورة كما يفعلون مع الزروع، ونظروا إلى ما تأكل الطيور فقالوا: لو أنّا أكثرنا

الصيد فيهم لقل عددهم، فلم يستهلكوا حرثنا، ولزاد مخزوننا منهم فنبيعهم لمن حولنا من الأمم، ونزداد كيل بعير، ذلك كيلٌ يسير. ولأن الفكرة لا تُقبَل إلا إذا تشربها العقل، فكان لزامًا عليهم أن يقنعوا بها مَلِكَهم، وأغروه بأن هذا سيزيد من نفوذه والكل مستفيد. فكّر الملك وقدّر، ثم أومأ بالموافقة فكان.

لم يكن الأمر مقبولًا مِن كل مَن في المدينة؛ فكان هناك من يرى أن هذا إفساد في الأرض، وطمع، والطمع لا يأتي بخير. ترأس هؤلاء المعارضين لفكرة التوسع في الصيد إمام مسجد الزيتون: الإمام ابن صخر. كان رجلًا في الخميسن من عمره، نحيف الجسم، طويل القامة، كث اللحية يشوبها بعض الشعر الأبيض، قصير شعر الرأس، بعينين هادئتين بهما مسحة من الحزن لتوازن بشاشة وجهه الدائمة، فلا يبدو متفاخرًا كثير الفرح، ولا حزينًا كئيبًا؛ وكان بسيط الهيئة، لطيف المعشر، طيب القلب، حسن الخُلُق، يرتدي جلبابًا أبيضًا أستنانًا بعمل رسول الله - ﷺ: (ألبسوا من ثيابكم البياض، فإنَّها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم)، وعمامة خضراء حيث كان يرى أن الزروع هي أعظم النعم التي أعطوها في أوستين، فكان يرى أن تعلوا رأسه عمامة خضراء تقديرًا منه لهذه النعمة العظيمة. كان الإمام ابن صخر إذا مشى أسرع وتواضع في مشيته، وإذا تكلم أسمع وأقنع، مسموعٌ قوله من أهل القرية، محمود رأيه عند الملك والأعيان في المدينة. وكان مسجد الزيتون مسجدًا أبيضًا -كما حال أغلب بيوت أوستين- ذا قبة خضراء بلون الزيتون، وهو أكبر مساجد المملكة وفيه يصلي ملك أوستين الجُمَعْ.

أتى نفر من أهل المدينة الإمام في غير وقت الصلاة فحدثوه عن الخلاف وعما يريده أغلب أهل القرية، ويكيدونه بالطير الذي لطالما ظنوا أنه مقدس عندهم، ولكن المال أعمى بصيرتهم.

– أيُّها إمام...لقد قلنا لهم مرارًا وتكرارًا، ولم يزدهم دُعاءنا إلا فرارًا. لو استمروا في هذا الأمر، سيهجر الطير المدينة أسرابًا، ولسنا ندري عاقبة الأمر بعدها؛ فأنت من علمتنا أن الطير نعمة من ربنا على هذه المدينة، وإذا زالت النعمة، حلّت النقمة.

أومأ الإمام برأسه موافقًا فأكمل المتحدث...

– يا إمام...أنت محمود الرأي عند مَلِكِنا، فكلِّمه علَّه يعدل عن موافقته لهم ويمنعهم من فعلتهم.

– إن الملك يقدِّر رأيي، ولكنه يقدر المال، والسلطة أكثر منه. أرى أن أحدث الناس في صلاة الجمعة، وأضع لهم من القول الراجح السديد ما يجعلهم يعودون عن فعلهم، ولا يكون للملك حينها إلا أن يكون في موقف الموافِق.

***

– وهل اقتنع الناس يا إمام؟

– لا، أيها الشيخ الكريم.

***



لقد أصر الناس في عنادٍ وإكبار، واحتجوا أنهم لا يؤذون أحدًا، وأنهم يصطادون ما فوق أراضيهم من الطيور، وإن من يعارض الأمر، فلا يصطد الطير الزائر لأرضه، وليهتم كلٌ بشؤونه الخاصة.

لم يكتفي الإمام بوعظهم في صلاة الجمعة وحسب، فقد كان يأتيهم في مجالسهم ونواديهم وينصحهم.

- يا قوم...لقد أنعم الله عليكم بجزيل نَعَمِه، وأفاض عليكم بغزير فضله، ولما اتقيتموه بعمل الخيرات ونبذ المنكرات، فتح عليكم بركاتٍ من السماء والأرض، وأنعم عليكم برحلتي الشتاء والصيف، تبيعونَ فيهما خراج أرضكم، وتكتسون من عمل أيديكم وأيدي غيركم، ولا يقرب لقوافلكم قاطع طريق، ولا يُغِيرُ عليكم عدو، فمدينتكم واحة الصحراء التي عليها يَرِدُون، وخزائنِ ما في الأرض من طعام وما يأكلون؛ فتحميكم مملكةَ كارمينيا شمالًا بسلطتها وقوتها، ويكف أهل مدن الصحراء عنكم بأسهم لأنكم أهل الزراعة والقوت لهم. يا قوم أنما الطير والأنعام أممٍ أمثالكم؛ سخّرها الله لكم، وجعل لكم فيها حقًا، وجعلها لكم نعيمًا في جنَّاته جنَّات النعيم فقال -سبحانه وتعالى: (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)، وأخرج لكم من الأرض من بقلها وقثائها وفومهَا وعَدسها وبصلها، ورزقكم ألبان أنعامكم، (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)، (كُلُوا وَاشْرَبُوا من رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)، (وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ).

فردوا عليه:

- إنّا نتصرف في نصيبنا من الأرض والسماء، ولا نؤذي من حولنا.

- يا قوم إنَّما الأرض أرض الله، والسماء سمائه، والإنس والجن والطير عباده. هل سمعتم ما نقل النعمان بن بشير-رضيَ الله عنهما- عن رسول الله - ﷺ - إذ قال: (مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم؛ فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذِ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم، نجوا ونجوا جميعًا).

لكن هيهات أن يجيب من كان لا يسمع إلا خشخشة المال. وما زاد الطين بلّة، وعقّد مهمة الإمام في أن يحاول ثَنْيَ أهل القرية عن فعل حماقة لا تُحمَد عقباها، هم فئة ثالثة في المدينة كانت قد آثرت الصمت على الانحياز إلى أي من الجانبين. رأوا أنهم في غنىً عن هذا الصراع الذي لا يضر أرضهم، ورأوا أنَّ لِمَن يُريدون اصطياد الطيور الحق الكامل في ذلك ما داموا لا يُؤذون الآخرين، ولا يصطادون إلا فوق أراضيهم.

إنَّ الحيادية لهي أمر خطير؛ يحسب أصحاب الحق أن المحايدين ليس عليهم من الإثم شيء، ولكنَّ الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس. واحتج هؤلاء المحايدون بحديث رسول الله - ﷺ - عن أنَّ القاعد في الفتنة خير من القائم فيها، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الراكب. كان رسول الله - ﷺ - يقصد بالفتنة هنا ما يلتبس فيه الأمر

على الناس فلا يعلمون الحق من الباطل في مسألة فرعية شائكة لا يبين فيها رُشد، فلا يتضح لهم عنها دليل من القرآن والسنة أو أحدهما. إنَّ رسول الله - ﷺ - كان قد حثّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكيلا يهلك المجتمع بما كسبت أيدي سفهاءه؛ فقد روى الترمذي عن رسول الله - ﷺ - أنّه قال: (والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهَونّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم).

- يا إمام...هوِّن عليك. ما هي إلا تجارة، ورسول الله - ﷺ - قال: (أنتم أعلم بشؤون دنياكم). أليس كذلك؟

- إي والله، ولكن الله -سبحانه وتعالى- الذي بعث نبيه - ﷺ - بالحق قال: (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا).

- لقد حُسم القرار يا ابن صخر أنا ملك مملكة أوستين، وأعلن أن قانون الترشيد في اصطياد الطير باطل، وأننا سنبدأ في اصطياد كميات أكبر والتجارة في لحومها مع البلدان المجاورة.

- إنما أنا ناصح، وإني لعملكم لمن القالين، وسأكرهه بقلبي وذاك أضعف الإيمان؛ (فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ).

***

- ما الذي حدث بعد ذلك أيها الإمام قاسم؟

- قد حدث من الأمر عسير يا أَمَةَ اللهِ.

***

بدأ الأوستينيون في اصطياد الطيور فوق أراضيهم. "ما اصطِيد فوق أرضك فهو لك"، كان هذا هو قانونهم. ظلَّ الأمر على حاله هكذا خمس سنين، ثُلُثَيّ السكان يصطادون ويتاجَرون في الطيور والزراعة بينهم ومع البلدان المجاورة، والمحايدون يَضعف بعضهم ويرى ربح التجارة، فيصطاد مع الصائدين؛ أمَّا المعارضون، فقد ضَعُفَ بعضهم وخاضوا مع الخائضين، وبعضهم لزموا زراعتهم وبيوتهم واصطادوا بقدر ما كانوا يفعلون في القانون القديم.

بعد خمس سنين قلّت أعداد الطيور المهاجرة إلى أوستين، بل وصارت تهاجر منها أسرابًا تلو الأسراب. لم يبقى من الطير من هو آمنٌ على حياته يرعى في المدينة إلا نُغَيْر الأطفال؛ يلعبون به ويسلون طفولتهم معه، حتى إذا كَبر العصفور الصغير، أخذه منه أهله واصطادوا له مكانه فرخًا صغيرًا يُفجعون به أمه، ويُلهون به أطفالهم.

وكان الإمام يُكثِر من قراءة قول ربُّ العزة -جلّ من قائل: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ). كان يُكثر تلاوتها في الصلاة لَعلهم يتعظون، إلا أنَّهم عَشَوا عن ذكر الرحمن فكانت الطَّامة.

"إذا زالت النعمة، حلَّت النقمة."، صدَق الإمام ابن صخر. لقد رحلت الطيور، وهجرت المدينة بعد خمس سنوات سُقيت الأرض فيها

من دمائها، وشهدت السماء على قتلها، وشبع الناس من لحومها. عندما هجرت الطيور المدينة تمامًا، عاد الناس إلى التجارة في الزروع وفقط، فما عادوا يهتمون بالطيور كثيرًا، فقد درَّ عليهم من وراء لحومها مالٌ وفير، واشتروا من الأنعام ما سيشبع شهوتهم للحم بجانب الخُضَر والحبوب. لكنَّ أحدًا لم يلحظ الفرق الذي حدث إذ هجرتهم الطيور، إلا بعد أن أصيبوا في أعز ما يملكون...زروعهم.

يبدوا أن الطيور كانت للمدينة بمثابة الحراس لها من كائنات شديدة الفتك؛ كائنات بُعِثت عذابًا على فِرعون وملَإِه...إنَّه الجراد: جُنْدُ اللهِ الأعظم.

في أحد أيام الصيف كان أهل أوستين جالسين يضحكون ويتسامرون بعد أن لقَّحوا أرضهم ببذور النباتات الصيفية، وكانوا يرتقبون حصادها بعد أسابيع قليلة، ثم من حيث لا يدرون ولا يحتسِبون جائتهم أمّةٌ غير التي هاجرت؛ جائهم الجراد من جنوب المدينة كأنما أتاهم قاصدًا -وقد كان- فأهلك لهم سور الأشجار الجنوبي في فينة من الزمن، وقُذِفَ في قلوبهم الرعب من هول المنظر، ففروا إلى بيوتهم ملتجئين مُغلقين النوافذ، وموصدين الأبواب، وداعين الله أن يستجيب لهم أنْ (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إنَّا مُؤمِنُونَ).

خرجوا ليلًا بعد أن انتهت غارة سرب الجراد فوجدوا أنهم قد قضوا على خمسين ومائتي إيكر -والتي كانت وحدة قياس المساحة في أوستين- من الأراضي الزراعية. لحسن الحظ أنهم كانوا يُخَزِّنون زروعًا في بيوتهم،

ومخازن المدينة. ولكن إن تكرر الأمر باستمرار، فسيهلكون في القريب العاجل، ولن تكون أوستين إلا أرضًا خاويةً على عروشها ذات بئَر معطلة، وقصر مشيد، وسيهجرها أهلها من الناس، كما هجرهتَهاَ الطيورٍ من قبلًهم.

ظن أهل القرية أنها ستكون هجمة عابرة للجراد. لربما كان يمرُّ من المدينة فقط؛ لكن تبدد ظنهم بعد الأسبوع الخامس من هجمات الجراد المتواصلة التي كانت تصيبهم ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع.

ذهب أهل القرية ليصلوا العشاء في مسجد الزيتون، ثم اجتمعوا بالإمام ابن صخر.

– يا إمام...مسَّنا وأهلنا الضر، ودعونا ربّنا فلم يُستجب لنا. فهل للخروج من هذه الأزمة من سبيل؟

– قال لهم الإمام ألم تأمروني أن أعرض عن نصحكم، واصررتم واستكبرتم استكبارًا؟ ألم يَكُفَّ بعضكم عن نصح بعض، وقلتم: لكلٍ أرضه والسماء تسع الجميع؟ ألم تسعوا في الأرض فسادًا فقتلتم الطيرَ، وغرّكم الطمع والدنيا وزينتها، ونسيتم أن الطير أممٌ أمثالكم ولهم حق العيش في الأرض؟ فأنَّي يُستجاب لكم؟

– ادعوا الله لنا يا إمام، لإن استجاب لنا وكشف عنّا الرجز، لننتهينّ عن أي سوء، ولنخصصن من خراج زروعنا الثلث...بل النصف للفقراء والطيور.

- سأدعوا، وادعوا، وأروا الله منكم خيرًا علَّ الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين.

استمرت هجمات الجراد لباقي السنة، وكانت لا تتوقف إلا في الشتاء وتتذبذب في الخريف. لم يقدر الناس على الاستمرار على هذه الحال؛ منهم من مات جوعًا، ومنهم من خرج في رحلة الشتاء إلى مدينة الحكمة ولم يعد، ومنهم من آثر البقاء واستولى على أراضي المهاجرين أو الضعفاء الماكثين الذين لم يعد لهم قدرة على الزراعة، فأعطوا أراضيهم للقادرين مقابل أن يطعموهم ولو جزءً يسيرًا منها.

تحولت أوستين من أرض خضراء إلى أرض صحراء قاحلة تتخللها عيون وبقع خضراء صغيرة. اضطر الباقون في أوستين إلى زراعة النباتات الشتوية سريعة النمو، وتخزينها في مخازن المدينة، وتوقفوا عن تصدير خراجهم فقد كان بالكاد يكفي من بقوا.

كانت أم فِراس، وأختاه من الذين أضناهم الجوع بعد أن صارت أراضي جارهم بورًا فاضطر للهجرة إلى مدينة الحكمة في الشتاء مع الفارين، فماتت معيزهم جوعًا ولم يجدوا مورد رزق يطعمهم بعدها؛ وكان فِراس يعمل لدى العديد من المزارعين ليحاول أن ينال منهم بعض الطعام لأهله، ولكن لم يكونوا يعطونه سوى ما يكفيه فكان يوزعه على أربعتهم، وأحيانًا ينام وبطنه تقرقر من الجوع بعد أن كان ينام ممتلئ البطن من الطيور الغزيرة في السوق، والتي عمل في أحد حوانيت بيعها في سوق المدينة في فترة من الفترات.

كان قد اشتدّ عوده، وقوي ساعده، وخَشُنَ صوته بعد أن بلغ الثامنة عشر من عمره؛ واستمرت الحال شهرين آخرين ولم يكن لعائلة فِراس من إبل يحملون أنفسهم عليها بعيدًا عن هذا الجحيم، فضلّا عن زاد يكفيهم السفر الذي كان يستغرق شهرًا إلى مدينة الحكمة.

وأخيرًا استسلمت عائلة فِراس للجوع؛ ماتت أمه وأختاه جوعًا؛ ماتت التي كانت عَينَ الحنان له في حياته، ماتت التي حملته كُرهًا ووضعته كُرهًا، وربّته وحدها، فكانت له الأب والأم والركن الشديد الذي إليه يركن، ماتت وآثار عَنَتِ الزمان منحوتة على وجهها شاهدة على تضحياتها ليحيى أولادها، فأبَت طفلتاه إلا أن يلحقا بأُمِّهما.

آهٍ...لو كان الجوع رجلًا لقتلته.

لم يكن لفِراس بدٌّ إلا أن يلجأ للبيت الذي لا تُغلَق أبوابه في وجه السائلين. توجّه للمسجد فلزم الشيخ ابن صخر الذي أصبح وحيدًا مثله بعد موت زوجته، وما قدّر الله له الولد؛ فوجد الولد في فِراسٍ، ووجد فيه فِراسُ الأب والعائلة، فقاوما معًا حتى انتهى الشتاء وانتظر الناس ما سيحلّ في الربيع.

"عاد الجراد!" كانت هذه الجملة كفيلة بأن تجعل نصف سكان المدينة يحزمون ما سَهُل لهم حمله ويعزمون الهجرة إلى جُزُرَ سولين، والتي كانت وجهة رحلتهم في الصيف، وملتقى قوافل العرب مع قوافل مملكة كارمينيا القابعة خلف بحر الروم في الشمال. تدبّر الإمام ابن صخر له ولفِراس بعض الزاد وناقة تحملهم إلى هناك، وخرجوا في قافلة طويلة

من سكان المدينة تخطت الألف شخص. ألقى الإمام نظرةً أخيرة على المدينة وقال:

– آآآه يا أوستين. (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ).

ونظر فِراس صوب الصحراء ولسان حاله يقول:

– (عَسَى رَبِّي أَنْ يَهدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ).

***

الفصل الثاني:
وأرض الله واسعة

الطريق بين أوستين وسولين - ربيع عامِ ١٣٩١ ميلاديًا / ٧٩٣ هجريًا:

- اللهم أنت الصاحب في السفر.. اللهم أنت الصاحب في السفر.. اللهم أنت الصاحب في السفر.

- بماذا تتمتم يا إمام؟

- دعاء السفر.

- وهل للسفر دعاء مخصوص؟

- أجل يا بني. إنّ من نعمَ اللهِ علينا أن نسأله متى شئنا، وبدون وسيط يخبره مسألتنا، وأن نسأله في كل صغير وكبير، فلا هين إلا ما هوَّنه الله، ولا سهل إلا ما جعله سهلًا، وسبحانه يجعل الحَزنَ إنْ شاء سهلًا؛ وإنّ رسول الله - ﷺ - كان يستعين بالله في كل أمره، فيدعوا رَبَّه - جل وعلا- قائلًا - ﷺ - (يا حيُ يا قيوم برحمتك استغيث، أصلح لي شأني كُلَّه، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين). وكان - ﷺ - يذكر رَبَّنا - جل جلاله - على كل أحيانه - ﷺ. ألست تقرأ في صلاتك (إِيَّاكَ نَعبُدُ

وإِيَّاك نَستَعينُ)؟

- بلى، ولكن...هل يجب عليَّ أنْ أدعو بتلك الكلمات وحسب؟

- لا، ولكن اعلم -يا بني- أنّ رسول الله - ﷺ - أوتيَ جوامع الكلم، ولا يوجد إنسان أعلم بالله من نبينا محمد - ﷺ - فوجب اتباعه - ﷺ - فهذا أهدى سبيلًا، وأجدر بأن يُستجاب؛ (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا).

- إذًا علمني إياها.

- أمي...لقد تعبت...متى سنصل؟

- قريبًا يا عزيزتي...خُذي العبي بقطعة الصوفِ هذه.

- تعال يا فِراس ننزل عن بعيرنا ونُرِي الله منَّا خيرًا، لعلّ الله أن يكرمنا.

- يا أَمَةَ الله...اركبي فقد مللنا الجلوس أنا وهذا الشاب الفتيِّ. أنخ الجمل لهم يا فِراس، وقُده؛ ولكن...رفقًا بالقوارير.

قطعت القافلة من الطريق مسير أسبوع في حرّ الصحراء. نال الحر من الرجال قبل النساء، وجاع الصبية بعد أن أوشكت المأونة أن تنفد، وقائد القافلة تاجر معتاد على كهذه أسفار، وعليم بالطرق، فنادى فيهم:

- أن صبرًا يا عباد الله، ففي الطريق قرىً نستزيد منها الزاد.

كان فِراس ابن تسعة عشر عامًا وقتها، ولكنه لم يخرج يومًا إلى حرِّ

الصحراِء، فنال منه التعب والإرهاق ما نال من جُلّ القافلة. كان فِراس مشغولَ البال، شاردًا في رمال الصحراء المتموجة المتراكبة، متأملًا في سماء الصحراء المتقلبة بين الظلام والتجلِّي بتعاقب المَلَوَان. كان يَفكر فيما حلّ بموطنه، وكيف تغير حال أوستين بين ليلة وضحاها، أكُلُّ هذا بسبب اصطياد الطيور؟ كيف لهذا الذنب الصغير -في نظره- أن يُهلكهم والطيور مَسَخَّرَةٌ لهم، ولهم في لحومها حقٌّ معلوم؟ وهل الله أهلكهم بهذا الذنب أم أنَّ هناك شيئًا آخر؟ أم أنّ الجراد قد عبر الصحراء جائعًا، فوجد أوستين غنيمة سهلة له؟

– ما الذي يشغل بالك؟

قاطعه الإمام ابن صخر بصوته الهادئ كخرير النهر.

– يا إمام...لماذا أوستين؟ لماذا ليست جُزُرَ سولين أو مدينة الحكمة أو أي مدينة أُخرى هي التي قد أصيبت بالجراد؟ هل كل هذا بسبب اصطياد الطيور؟

صمت الإمام كعادته عند سماع أي سؤال شائك. يصمت حتى تحسبه لن يجيب، ثمّ يتكلم حتى تحسبه لا يصمت.

– يا بني...لماذا أوستين؟ من بين عشرات القرى في الصحراء، ومملكتان عظيمتان في بلاد العرب، ومملكة مهيبة في أرض الروم؛ لماذا كانت أوستين وحدها التي تمتلك من أراضي الزروع أذرعًا لا يُرى لها أولٌ من آخر؟

ثم صمت الإمام ليعطيه برهة ليفكر. نكَّس فِراس رأسه خجلًا لبرهة، ثُمَّ رفعها كأنما جائته البينة، فردّ بابتسامة ممزوجة بحمية المصاب في أهله.

– إذًا فما بال الطيور؟ هل هي أفضل عند الله منَّا حتى يأتينا الجراد عندما اصطدناها لنأكل وننعم بنعمه علينا؟

– أرض بها زروع وتقع على الضفة الأخرى من البحر الذي تشاركهم فيه مصر والتي حلّ فيها الجراد يومًا؛ فما بال الجراد لا يأتيها؟

– لكن لماذا الآن وليس منذ خمسين أو سبعين عامًا؟ إنَّ أوستين قائمة منذ أكثر من مائة عامٍ ولم يُغِر عليها الجراد يومًا؟

– ما الذي تغيّر في رأيك؟

– اصطياد الطيور؟

– وإذا ذهبَت النعمة، حلَّت النقمة. يا بني...إنّ الطيور من آكلات الجراد؛ فإذا علمت أن في أرضٍ أسدًا، أتأتيها؟

– لا وفَالِقِ الحَبِّ والنَّوَىَ

– فهكذا الجراد لم يزر أوستين يومًا، وهي مجمع لما لذّ وطابِ له من الطعام -لوجود الطيور حرسًا عليها في السماء بأمر ربِّها- فلمّا طَمِعَ الناس، أذاقهم الله سيِّئآت ما كسبوا. يا بني...إنّ امرأة دَخلت النار في هرة، لا هي اطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض؛ وإنّ الأرضَ أرضُ الله، والخلقُ خَلقُ الله، وأرض الله واسعة، والرزق للطير

والحيوان والإنسان. وإنَّ الناس ليظلمون في الأرض، فَيُمنَعون القَطرَ من السماء؛ ولولا البهائم لم يُمطروا. وهل علمتَ -يا بني- أنّ امرأة بَاغيَّةً من بَغِيِّ بني إسرائيل سقت كلبًا بمُوقِها قد أدلع لسانه في يوم قائظ الحرِّ؛ فغفر الله لها. يا بني، (ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرجِعُونَ).

– فهل إذا رجع الناس وتابوا، يعفُ الله عنهم؟

– (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَابِينَ غَفُورًا).

– هل حدث أن أهلكت قريةٌ لفعل بسيط كهذا في التاريخ... يا إمام؟

– أجل قرية سبأ؛ تبطَّر أهلها على نعمة الله وبطروا معيشتهم ودعوا ربَّهم أن يصعب عليهم حياتهم، فجعلهم اللهُ أحاديث ومزقهم كل ممزق إنَّ في ذلك لآيات لكلِّ صبَّارٍ شكور.

نادى قائد القافلةِ:

– قد وصلنا إلى قرية هوامز، فاستزيدوا من الماء بما تحمل جمالُكم، واسئلوا أهل القرية من الطعام ما يكفيكم مؤنة سفَرِكم ففي الطريق بقية، وأهل هذه القرية أهل كرَمٍ وضِيافَة.

***

– إذن، يا إمامنا، فالنعم تزول حقًا بعدم تقديرها؟

- ثكلتك أُمُّك يا رجل! روى ابن أبي الدنيا في كتاب "الشكر له"، عن عائشة -رضي الله عنها- أنَّها قالت: دخل رسول الله - ﷺ - فرأى كسرَةً مُلقَاة؛ فقال: (يا عائشة...أحسني جوار نِعَم اللهِ عليك، فإنَّها إن نَفَرت عن قوم، فكادت ترجع إليهم.) وفي رواية ابن ماجة جاء اللفظ (فدخلَ عليَّ، فرأى كسرة مُلقَاة، فأخذها فمسحها ثمَّ أكلها، وقال: يا عائشة أكرمي كريمَكِ، فإنها ما نفرت من قومٍ، فعادت إليهم).

***

شَدّت القافلة رحالها بعد أن استزادت من كرم أهل هذه القرية، وأكملت طريقها فجرًا بعد مبيتِ ليلة واحدة في خيم حول مرابِع القرية. استمرّ مسيرهم أسبوعين آخرين يمرون على القرى، فيستزيدون بما عندهم إنْ رضوا، وإن أبوا أنْ يُضَيِّفوهم -فبعد معرفة القرى بما حلّ بأوستين، لم يعد لهم حاجةٌ في أن يُداهنوا أهلها- قالوا: حَسبُنا الله سيُؤتينا الله من فضله إنّا إلى الله راغبون.

لزِمَ فِراس جانب الإمام ابن صخر يتعلم من علمه في السفر، وينهل من غَزير حكمته، ويتثبُت بيقينه بربِّه؛ ولم يبخل عليه الإمام بشيء، لا بعلم ولا بزاد -وخير الزاد التقوى- فعلمه كيف يتقي الله وأخبره من قصص السابقين ما فيه العظات والعِبَر.

- يا إمام...ما هذه الأطلال هناك؟

- آه يا فتى...لقد سألت عن عظيم. دعني أسرد عليك قصتهم لعلِّي أُطوي لك من زمن الطريق ساعة. هذه قرى سدوم: قرى قوم

لوط -عليه السلام، أهل فُحش عظيم؛ فعلوا ذنبًا لم يسبقهم به أحد من العالمين. كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وكانوا يقطعون السبيل، فلا تأمن قافلة -كقافلتنا هذه- المرور من هنا. لم يكن المارة يخافون فقط على أموالهم بل وأنفسهم.

- هل كانوا يخافون القتل، أو أن تُسبَى نسائهم، وأطفالهم؟

- بل أعظم. كان الرجال يخافون على أنفسهم مما يُفعَلُ بجنسهم في هذه القرية الملعونة، المسرفة.

كان لنبي الله إبراهيم -عليه السلام- قريب في النسب يُدعى لوطًا. كان ممن آمنوا معه، وخرج معه من أرض العراق مهاجرًا إلى أرض أكثر صلاحًا ليعبدوا الله ويدعوا أناسًا آخرين، فقد استيئَسوا من قومهم، وأمرهم الله بتركهم فإنَّهم قومٌ لا يهتدون.

آتى الله لوطًا -عليه السلام- النبوة، وأمره بأن يفارق إبراهيم -عليه السلام- إلى قُرى سدوم ليدعو أهلها إلى عبادة ربِّهم، ونبذ قَذَرِ فِعَالهم. كان نبي الله لوط -عليه السلام- غريبًا عن هذه القرى بلا رهط يحمونه، أو ركن شديد يركنُ إليه، ولكنّ أمر الله كان مفعولًا، وما كان لنبي أن يعصي رَبَّهُ فهؤلاء قوم ليسوا بربُّهم بكافرين. لم يكن مع نبي الله لوط -عليه السلام- إلا أهلهً: امرأته وبناته، وكانوا كلهم هم أهل الإيمان في هذه القرية...أو هذا ما كان يظنّه نبي الله لوط-عليه السلام.

أهل سدوم: كانوا قومَ شهوة وسَأم؛ يسئمون من المعتاد، ويحبون كلّ غريب وجديد إذا وافق هواهم؛ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى

مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

لقد رزَقَ الله الإنسان سنَّةَ الزواج بين الرجل والمرأة حلالًا طيِّبًا، فأبى قوم لوط -عليه السلام- وأرادوا شيئًا ليس فيه مسؤولية ولا طُهر؛ شيئًا يرضي شهوتهم كأنما شهوتهم هم، وهم هي؛ فذهبوا إلى الزنى، فوجَدوا فيه انجابًا وإن كان فيه اعتداء على ما ليس لهم، وفسادٌ اجتماعيٌ. ولكنّه لم يكن ذروة الهوى لديهم، فلا زال الأمر طبيعيًا عند قومٍ آخرين فعلوه قبلهم. لقد طبقوا قول المتنبي قبل أن يقوله.

أنا وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطِعه الأوائل

فوجدوا أن الجديد أن يُخالفوا الفطرة ويُنكِّسوها. أن يأتوا الرجال شهوة من دون النساء؛ إنّ هذا لهو الجديد. ورأوا أن لهم حرية التصرف فيما أوتوا من نعم ومتع. كلا وربَّ الإنسان، إنَّ هذا لهو الاعتداء المبين.

- إذن فلم لم يهلكهم الله مباشرة قبل أن تنتشر هذه الفاحشة القبيحة؟ لِمَ بعث الله لهم نبيًا يدعوهم وهم على هذا القدر من الفساد؟

- إن الله يُمهلُ ولا يُهمِل؛ وإنّ الله لما خَلَق الخلق كتب عنده في الكتاب، فهو عنده فوق العرش، إنّ رحمتي سبقت غضبي؛ (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىَ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

دعاهم نبي الله لوط -عليه السلام- أنْ يا قومي كفوا عن قبيح فعلكم، ولا تأتوا السوء، وأتوا النساء كما أمركم الله بالزواج، فطرة الله

التي فطر النَّاس عليها، لا تبديل لخلق الله. يا قوم هؤلاء بناتي هُنَّ أطهر لكم إن كنت فاعلين. فقالوا له: (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ). وقالوا له: نحن أحرار يا لوط فِي أن نأتِي الرجال حَريتك في أن تأتِيَ النساء، ولإن لم تنتهي يا لوط لتكونَنَّ من المُخرَجين؛ إنَّك وآل بيتك تنغصون علينا عيشنا؛ إنَّكم أناس تتطهرون، فاخرجوا، إنَّ طهركم يثير اشمئزازنا.

- ليتهم يفهمون -يا بنيّ- الفرق بين الحرية والطيش. إنَّ الطيش هو ما أهلك أوستين، وجعل زرعها حُطامًا. إن النحات إذا صارت يداه حرة بلا قواعد فن النحت، طاشت في الحجر فحطمته، ولولا الحدود والقوانين، لطاشت يد السلطان على القوم فظلمتهم، ولبغى أهل الأرض بعضهم على البعض، وإنَّ أشد الظلم -بعد الشرك بالله- أن تظلم نفسك بنبذ نعم الله، وطلب ما هو مخالف للفطرة، (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)؟ (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

أصرّ نبي الله لوط -عليه السلام- على دعوتهم إلى طريق الرشاد إصرارهم على بغيهم على أنفسهم، حتى ضاقت نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبت فقالوا له كما جاء في قوله -تعالى: (لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنْ الْمُخرَجِينَ)، فقال -عليه السلام بما جاء في قول رَبِّنَا- تبارك وتعالي: (إِنِّي لِعَمَلِكُم مِنَ القَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلونَ).

على الجانب الآخر -جانب الفطرة السليمة السوية- كانت زوج نبي

الله إبراهيم -عليه السلام- ترجوا من ربِّها -سبحانه وتعالى- أن يرزقها الولد، وكانت عقيمة، وقد صارت عاقرًا وبلغ بعلها -عليه السلام- من الكبَرِ عِتيًا. فجاءت رُسُل ربنا إلى إبراهيم بالبشرى أن سلامٌ عليك، وبشَّروه بغلام عليم. ولكنّ نبي الله إبراهيم -عليه السلام- كان ذا فطنة فعلم أن الرُسُل لم تأتي لتبشره وفقط، بل جاءت وفي جعبتها شيء آخر؛ فقال لهم بما جاء في قوله -عزّ وجلّ: (فَمَا خَطْبُكُم أَيُّها المُرسَلُونَ)؟ فقالوا له: (إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِين * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ). فقال: (إِنَّ فِيهَا لُوطًا)؛ قالها خائفًا على قريبه؛ إنه لحليمٌ أوّاه منيب، ولَلهُ أرحم بأنبيائه وعباده المؤمنين من إبراهيم بابنِ جلدته لوط؛ فقالت له الرُسُل: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ).

– لكن لماذا تهلك امرأةُ لوط يا إمام؟ أليست من أهله؟

– بلى يا فِراس هي من أهله في الدنيا، ولكنها ليست كذلك في الآخرة. لقد خانت زوجها لوط -عليه السلام؛ ليس خيانة الزوجة لزوجها فما ابتلى الله نبيًا بذلك قط، ولكنها خيانة المؤمنة لربِّها ودعوة نبيها؛ فحقّت كلمة ربك على الظالمين إذ اكتفى الرجال بالرجال في قوم لوط، فقيل أنَّ النساء لم يكن لهنَّ إلا أن يكتفين بأنفسهن أيضًا، وقيل أنَّهنَّ سكتن عن هذا القبح ورضينه، فحقَّ عليهنَّ العذاب في كلتا الحالتين، ولم يكن لقوم لوط من الله من واقٍ.

جائت الرُسُل إلى نبي الله لوط -عليه السلام- فجاءوه في أحسن

هيئة وصورة: رجال مُرد ذوي جمال يحبه قوم لوط الآثمون؛ فأذاعت امرأته إلى القوم الخبر أن أقبلوا، قد جائكم ما تتمنون عند من لا ترجون. فهرعوا إليه مسرعين أن: خل بيننا وبينهم يا لوط فإنا ذئاب يحركنا جوع شهواتنا حيثما كان إشباعها. فقال -عليه السلام- وهو يحاول أن يحول بينهم وبين ضيوفه مدعِّمًا باب بيته الذي كادوا يكسرونه ليصلوا إلى مبتغاهم: (هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)؛ وأحسّ بضعفه أمام كثرتهم فقال: (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ). فنبَّهته الرُسُل -بعد أن ضاق بهم ذرعًا: (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)؟

لقدْ أُمهلوا، وأُنذروا حتى أعرضوا، فحقّت عليهم كلمة ربِّكَ إنَّهم لذائقون. (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).

- وما تراه الآن من أطلال لهذه القرية، ما هو إلا قولَ ربِّك -تجلّى في عُلاه: (وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ). فهل عقلت يا فِراس؟

جَنَّ الليل على القافلة بعد مسيرة عدةِ أيام أخرى. لم يبقى بعدها إلا القليل على الوصول لجُزرِ سولين.

- الله أكبر...الله أكبر...

- سنصلي العشاء ونخيِّم هاهنا اللية، وغدا سنكون على مشارف

جُزُرِ سولين لنركب البحر ونَصِلَ إلى جزيرة المُهاجرين هُناك، إِنْ شاء الله.

صَدح بهذا الإعلان قائد القافلة بعد أذان العشاء الذي رفعه الإمام ابن صخر.

- أقم الصلاة يا فِراس.

- قد قامت الصلاة...قد قامت الصلاة...الله أكبر...الله أكبر...لا إله إلا الله.

- استووا...الله أكبر...

صلَّى الإمام ابن صَخرٍ بهم إمامًا، وصوته يشقُّ ظلمة الليل وهدوء الصحراء بقوله -تعالى:

(أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ).

***

الفصل الثالث:
صديقٌ أم عَدو

(اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

ساحل بحر الروم - ربيع عامِ ١٣٩١ ميلاديًا / ٧٩٣ هجريًا:

وصل الركب إلى ساحل بحر الروم وأصبحت جُزُر سولين على مرأى من أعينهم. أربعُ جُزر في وسط البحر تكوِّنُ شكلًا رباعيَّ الأضلاع، وجزيرة خامسة -تُدعى جَزيرة الجوهرَة- في منتصف هذا التكوين الأرضي البديع العائم في وسط البحر؛ وتتصل جزيرة الجوهرة هذه ببرِّ بلاد العرب عن طريق أرض ضيقة طويلة تكتنف نهرًا خارجًا من بلاد العرب ليمتَدُّ في جزيرة الجوهرة، ويتفرع منها إلى الجزر الأربع الأخرى المتصلة بها بجسور برِّيَّة رملية طويلة، عرض الواحدة منها لا يتعَدّى الألف ذراع. تجري فروع الأنهار هذه في هذه الجسور الرملية، فكأنها عِرق من مياه عذبة تجري في مياه البحر المالحة؛ منظر يتغنَّى به الشعراء إذا وقفوا على أبراج الجزر الخمسة سابحين بخيالاتهم في عالمٍ من الجمال.

لم يجد الشعراء كلمة تصِف جزر سولين غير أنها جنّة الله في أرضه؛

فإذا رأيت ثَمَّ رأيت فزرقة البحر، وصفاء السماء، وجَوَار في البحر كالأعلام. لا يملَك الناظر إليها إلا أن يقول: ليس بأيٍّ من نعماء ربِّنا نُكذِب.

كانت الجُزُر الخمسة مسمّاةً بأسماء تميِّزها عن بعضها البعض، وتصف حالها، ومكنونها من السكان؛ وكان بعضها يتخذ شكلًا هندسيًا مميزًا يلفت الأنظار.

جزيرة التجّار: جزيرة بيضاوية الشكل، تقع شماليِّ شرقِ المملكة، وكانت مخصصة للتجارة مع مملكة كارمينيا في الشمال، وهي أيضًا مُلتقى لتجار بلاد العرب والهند مع تجار مملكة كارمينيا. بها أسواقٌ عديدة، وديوان الضرائب، ومرسىً ضخم للسفن، وأسواقٌ متنوعة البضائع، طويلة الممرات، وبها منازل لاستضافة التجارة القادمين من شتى البلدان لينزلوا فيها ليالي تجارتهم؛ وكانت فخامة المنازل تتناسب مع فخامة ما ستدفعه، فَدَاءُ مملكة سولين البحرية هو الطبقية الجائرة، والكِبر، والأشْر؛ كما كان داء أوستين الطمع والإسراف.

جزيرة الأعيان: جزيرة دائرية الشكل، تقبع في جنوبيِّ شرق البلاد؛ يقطنها الأغنياء من التجار، وكِبار الصيادين، وعِليَة القوم في المملكة؛ بها المباني الفاخرة، والبيوت الضخمة، وثلاث مساجد ذات مآذن عالية مليئةٌ بالزخارف، خاوية من المصلِّين إلا في الجُمَع، وطرق مرصوفة ممهدة يمشي فيها الرجل متبخترًا بجماله وعلياء مقامه وفخامة ثيابه، تحدّها أسوار عالية، وتحرسها سفنٌ كثيرة، ولكنّها لا تُقارن عددًا

بالأسطول البحريّ الذي يحيط بجزيرة الجوهرة. لا يدخل جزيرة الأعيان إلا أهلها وأهل جزيرة الجوهرة، ولا يخرج منها سكّانها إلا لتجارة أو سفر، فلديهم فيها ما يكفيهم الخروج.

جزيرة الجوهرة: جزيرة ذات شكل خماسيٍّ غير منتَظم -كما النظام الطبقي في سولين- يدخل إليها من إحدى رؤوسها الخمسةً نهر من بلاد العرب يسمى نهر الفضل، ويتفرع للجزر الأربع مارًا بالرؤوس الأربع الأخرى للجزيرة؛ يعيش فيها الأمراء والوزراء ومَلِك جزر سولين، ويحيط بها الأسطول من كل جانب. في وسط الجزيرة قصر اللؤلؤة، وهو قصر الملك؛ قصر أبيض ضخم مشوبٌ بالأزرقُ، وتزيِّنه الزخارف من كل جانب، ومبهرج بأشكال المرجان والأصداف وعجائب الأسماك، يحسبه الناظر أنَّه قد استُخرِجَ من قاع البحر بمردة شياطين نبي الله سليمان -عليه السلام؛ يخرج منه أربعة أبراج، كل برج في اتجاه جزيرة من جزر المملكة، ويجاوره قصور الأمراء والوزراء وكبار قادة الأسطول البحري. تلك القصور على فخامتها لم تكن سوى كبيوت جزيرة المنسيين مقارنة بقصر اللؤلؤة.

جزيرة المنسيين: جَزيرةٌ نسي الشعراء وصفها، كما نسي الملك أمرها، ونسيَ الأعيان وجودها؛ لا يُرى أهلها إلا في جزيرة التجار يحملون البضائع للتجار ليتكسَّبوا قوت يومهم، ثمّ يعودون إلى جزيرتهم ليعيشوا بساطتهم، والتي كان يسميها المهاجرون بؤسهم. كانت تقع في جنوبيِّ غرب البلاد، وكان أسطول المملكة المرابط عندها يحمي حدود

البلاد من الأعداء، ويحمي جزيرة الجوهرة من الفقراء المنسيين. ليس لها شكل هندسي محدد، كأنما الهندسة قد نستهم هي الأخرى.

جزيرة المهاجرين: جزيةٌ كان يأتيها من يأس العمل في بلاده، فأراد أن يضرب في الأرض يبتغي من فضل الله، فيبحث عن الرزق في البحر، والتجارة في جزر سولين؛ ولكثرة الوافدين على المملكة قرر الملك أن تكون لهم الجزيرة في شماليِّ غرب البلاد، وعلى أي حال سكان المملكة قلائل وجلّهم في جزر الأعيان والجوهرة والمنسيين، فلن يكون تضييقًا على السكان منح جزيرة للمهاجرين، بل إنَّ هذا سيخدم الطبقية الجائرة للمدينة والتي يحبها الأعيان والأمراء، فكيف لهم أن تحملهم نفس الجزيرة مع مهاجرين فقراء أراذل، كما يقولون. وكانت الجزيرة ذات شكل مثلث عند كل رأس من رؤوسها يوجد مرسى للسفن، وهي ما كانتْ وسيلة المواصلات في بلاد سولين.

– أركبوا السفينة، (بِسْمِ اللهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ).

– سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين، وإنَّا إلى رَبِّنَا لمنقلِبون.

– انظر يا إمام!

– ماذا يا فِراس؟

– أنظر إلى السمك كيف يسبح في البحر من تحتنا! لم أرى يومًا البحر بهذا القرب؛ كنت أسمع ارتطامه بصخور جبل الشامة وحسب، أو أراه من علٍ.

- اعتد عليه يا بني؛ فهذا منذ اليوم جارك وصديقك في هذه المملكة. هل تعلم أنَّ أهل هذه المملكة يعمل جُلُّهم في الصيد والتجارة؟

- كثيرًا ما تمنيت أن آكل السمك. كان تجار المدينة يحكون عنه إذ يأكلونه في زيارتهم لسولين، ولكنّهم لم يكونوا يحضرونه معهم لأنه يفسد بسرعة، فما كان ليتحمل طريق السفر، وكانت صعوبة تسلق جبل الشامة ببضائع السمك تثبطهم عن التفكير في مهنة الصيد فالزراعة تكفيهم قوت يومهم.

- يبدوا أن أمنيتك قد تحققت يا فتى. سبحان من أخرجنا من أرض الزروع، لنأكلَ لحمًا طريًا؛ الحمد لله الذي يرزقنا من البر والبحر رزقًا طيبًا.

كانت رحلتهم البحرية من مَرْسَى صحراء العرب إلى جزيرة المهاجرين تستغرق الوقت بين الفجر إلى الظهر، وكان من الصعب النوم في السفينة فهي كانت مزدحمة تكاد لا تتسع إلا لمواطئ أقدام الواقفين فيها. كان استئجار السفينة مكلِّفًا، إذ كلَّفت هذه السفينة القافلة رُبُع إبلها.

- احكِ لي قصة أخرى يا إمام تختصر علينا الرحلة، فقد بدأت أمواج البحر تتشابه عليّ وسيغلب عليّ السأم عما قريب.

- ما رأيك في قصة عن صيادين مثل الذين ستراهم بعد قليل؟

- نِعم الاختيار ذاك يا إمام.

- ولكنّهم ليسوا صيادين كسائر الصيادين؛ لقد كانوا صائدي هلاك أنفسهم كما كانوا صائدي سمكهم؛ إنها قصة أصحاب السبت.

كان من تعاليم نبي الله موسى -عليه السلام- في بني إسرائيل أن يفرِّغوا أنفسهم للعبادة يومًا في الأسبوع، فلا ينشغلوا بشيء من دنياهم؛ وكان اختيار الله لبني إسرائل أن يكون هذا اليوم هو يوم الجمعة، ولكنّ بني إسرائل آثروا أن يكون السبت هو ذاك اليوم الذي يتفرغون فيه للعبادة -لأنه اليوم الذي انتهى الله فيه من خلق السماوات والأرض- فرضي الله لهم ذلك، وكان لهم ما أرادوا.

إنّ من فضل الله علينا -يا بني- أنّا لم نكن قومًا مُطلًا يأبون اختيار الله ويؤثرون أن يحفظوا كتابهم المقدس بأنفسهم كبني إسرائيل، بل كان قولنا: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)؛ فرحمنا الله بأن وضع عنَّا ما حمَّلهم من الإصر والأغلال؛ فجعل لنا ربُّنا يوم الجمعة عيدًا في أسبوعنا، وأحل لنا فيه التجارة وعمل الدنيا فقال -جلّ من قائل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

بعد موت نبي الله موسى -عليه السلام- بفترة من الرُسُل، جاء لبني إسرائيل نبيٌّ كريم يقال له داود -عليه السلام. كان من أجمل الناس صوتًا حتى قال رسول الله -صلى الله عليه وسلَّم- لأبي موسى

الأشعري مادحًا صوته في القرآن: (لقد أُوتِيتَ مزمارًا من مزامير آل داود)؛ وكانت الجبال تُؤوِّب معه والطير، وكان حَدَّادًا أوتي النبوة والحُكْمَ والعلم. وفي عهده -عليه السلام- في قرية مُطِلَّة على البحر الأحمر يُقال لها أَيْلَة، كان يقطن نسلٌ من ذريّة بني إسرائيل. كان أهل هذه القرية يشتَغِلون بالصيد والتجارة، واستمروا على شريعة نبي الله موسى -عليه السلام- يُقدِّسون السبت يومًا لهم في الأسبوع للعكوف على عبادة ربهم، وترك مشاغل دنياهم؛ ولأن الله -سبحانه وتعالى- قال: (الم ❁ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ❁ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)، فوجب اختبار إيمانهم، وصدق إخلاصهم لربهم.

كانت تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعًا مُلَوِّحةً لهم على صفحة البحر تدعوهم أن هِتنا لكم فاصطادونا؛ ولكنّهم إن فعلوا، فسيكونون قد عصوا ربهم وانشغلوا عن عبادته بعمل من الدنيا في سبتهم الذي اختاروه؛ وكانت سائر الأيام جدباء من الحيتان إلا في قاع البحار العوامق، فكان الصيد فيها قليلًا، والربح شحيحًا. (كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ).

- اعلم -بنيَّ- أن لكل نعمة سابقة امتحان واختبار، ولا تأتي عظيم النعم، إلا في أرحام المحن والابتلائات. فمن صبر على المحن، نال النعم، ومن سخط، فعليه السخط.

اجتمع أكابر مجرميها ليمكروا فيها، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما

يشعرون. قالوا: ما لنا قد خفّت عقولنا كما خفَّت شباك صيدنا؟ نرى الحيتان تسبح وتلهوا على صفحة الماء كحورية بحر تدعوا ناظرها أن إتني، فلا تمتد أيدينا إليها؛ وإذا غاصت في قاع البحر في باقي الأيام، طلبناها بغالي الثمن من أوقاتنا وعرق جبيننا! إنّ هذا لهو الضلال المبين.

فقرر أشقيائها أن يُخالفوا أمر ربهم ويصطادوا في سبتهم بالحيلة والمكر، ظنًا منهم أنَّ الله لن يكشف حيلتهم؛ فحفروا للأنهار مجار تمتد في القرية تدخل منها الأسماك في يوم السبت، ولا يمسونها، ولكنّهم يضعون سدودًا تمنعها من العودة إلى البحر مرةً أخرى... (يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ).

وكان في القرية رَهط من المتقين يَرَون فساد هؤلاء الفاسدين المعتدين على حدود الله وأوامره، ويقولون لهم: اتقوا الله وارجوا اليوم الآخر؛ فأعرضوا عنهم، وولوا إلى صيدهم مدبرين.

- لكن يا إمام...أليس الله هكذا قد أضلهم بعظيم؟

- (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، (وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ)، (كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)، (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

كان هناك في القرية حزبٌ ثالثٌ غير المتقين الناصحين، والمعتدين المعرضين؛ كانوا حِزْب (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا). ألم يعلموا قول اللهِ -جلّ وعلا: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى

بظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ). فردّ عليهم المؤمنون أن (مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ).

استمر نصح المتقين للمعتدين، واستمر سكوت الساكتين، حتى استيأس المؤمنون من المعتدين، فضربوا بينهم بسور في القرية، ولسان حالهم أن: (لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)، (فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ). فجاء أمر ربِّك إذ عتا معتدوا أصحاب السبت عن أمر ربِّهم ولم يتوبوا، فقال لهم -سبحانه وتعالى: (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)؛ فسبحان مَنْ يقول للشيء كُنْ، فيكون.

استيقظ أهل القرية من المصلحين فاشتبهوا بغريب أمر قد حدث في القرية، فقرروا أن يطلعوا على أقربائهم وإخوانهم من المعتدين على الجانب الآخر من السور؛ فلمّا ظهروا السور، رأوا مالم يعهده إنس من قبل. رأوا إخوانهم من المعتدين قد مُسِخوا قردة، فلم يعرفوهم، فقد تشابهت القردة عليهم، ولكنَّ إخوانهم من القردة عرفوهم، فبكوا إليهم ولسان حالهم يقول: ادعوا ربكم لإن كشف عنّا الرجز إنّا لمُهتَدون؛ ولكنَّ أمر الله قد جاء، (وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ). لقد اصطادوا هلاكهم بأنفسهم وجائهم العذاب من حيث لا يشعرون؛ (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

- وماذا عن الساكتين؟

- سكتوا عن الحقِّ، فسكت اللهُ عنهم، وأَمْرُهُم إلى اللهِ.

- هذه القصة تشبه كثيرًا قصة أوستين، إلا أن رَبَّنا قد رَحِمنا ولم

يأخذنا أخذة انتقام كهذه.

– أجل يا فِراس...(وَمَا كَانَ اللهُ مُعذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ).

– هيا يا قوم...اصطفوا في هدوء للنزول من السفينة.

صاح في الركاب قبطان السفينة. كان المرسى يضجّ بالسفن؛ جوارٍ مُنشآتٍ في البحر كالأعلام، والناس في جيئة وذهاب، وطيور النورس تُحَلِّقٌ من فوق الرؤوس.

– آه أيتها الطيور! (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ). يا أخا الأرضَ والسماء...لن نؤذيك ثانيةً؛ يا جُندًا سخره الله لنا في السماء يحمينا من الهوام ومما لا نعلم، عُد إلينا فلقد ندمنا على ما فعلناه بأبناء جِنْسِك.

جزيرة المهاجرين...أخيرًا وصلوا. جزيرة ينطبق عليها القول: "كلانا غريب، وكل غريب للغريب نسيبُ". نزل مهاجروا أوستين واختلطوا بسكان الجزيرة، واستقبلَهم وَالِي الجزيرة، فلقد وصل خبر أوستين إلى جميع رُبُوع الأرض، وانقطعتَ زروعها عن البلدان، مما أضاق الحال ببعضها فاضطروا للزراعة، والبعض الآخر أضطر لأن يتعامل مع البلاد القاصية كالهند والصين.

– مرحبًا بكم في جزيرة المهاجرين...أَهْدَأُ جُزُر سولين. لا يخدعنّكم ازدحام الميناء، فأغلب المهاجرين يعملون في الصيد أو النقل البحريّ، أو الغزل بالنسبة إلى النساء؛ إلى جانب أن الجزيرة يحيط بها الأسطول

البحري كي لا تكون ثغرًا يدخل منه الأعادِي. تعالوا.. لدينا هنا الكثير من الأكواخ الشاغرة.

كانت الجزيرة قليلة السكان، واسعة الأرجاء، كثيرةٌ هي البيوت الشاغرة فيها، والأراضي الخالية الممهدة لبناء الأكواخ عليها؛ وهذا كان حال المهاجرين: يسكنون في البيوت الشاغرة المتاحة معًا حتى يتمكن كلٌ من بناء بيته الخاص بموافقة إدارة الجزيرة التي تخضع لحكم ملك جزر سولين، ثُمَّ يذهب كل ليعيش في كوخه الذي بنى.

- هيا يا فِراس لنذهب لنصلي الظهر. أين المسجد هنا -سيدي الوالي يرحمك الله؟

أخذ فِراس يتلفت يمنة ويسرة ويستطلع أحوال الجزيرة أثناء سيره إلى المسجد مع الإمام ابن صخر.

- إلى أين يا إمام؟ المسجد هناك!

- سنضع متاعنا هنا في هذه الأرض الشاغرة بجانب المسجد. سنصلي، ومن ثَمَّ نبدأ في البناء.

كانت أرضًا بسيطةً صغيرةً تجاور المسجد، لا تكفي إلا لكوخ ذي مساحة صغيرة يسع الإمام وفِراس بمتاعهما القليل، وكانت الأَراضي الشاغرة في الجزيرة تُعرَف بخشبة زرقاء تُدَقُّ في وسط الأرض ويخط حولها مساحة الأرض الشاغلة بالطبشور الأحمر الذي كان يُحضَر من جبل صغير في وسط الجزيرة.

- جبلٌ أحمر؟

قالها فِراس متعجبًا بعد أن صعد إلى مِئذنة المسجد بعد صلاة الظهر ليُلقي نظرة على الجزيرة من الأعلى، حيث كان جبلًا صغيرًا تحيط به الأشجار الكثيفة، فلا يبدوا لونه المخمليٌّ إلا من عِلٍ.

- ألم أكن قد علَّمتك سورة فاطر، يا فِراس؟

- بلى...ولكنَّ عِلم اليقين غيرَ عينه، يا إمام.

- أصبت، يا بُنيَّ. هيا بنا الآن للعمل.

***

- ولكن كيف تدبّر الإمام وفِراس المال لشراء مواد بناء الكوخ، سيدي الإمام ابن فِراس؟

- لقد كان معهم ذهب بقيَّةً مما تركتا زوجة الإمام ابن صخر وأم فِراس، فدفعوا به ثمن الخشب وأدوات البناء.

***

كان فِراس قد بلغ من العمر عشرين عامًا، فكان قويًا كفاية ليعمل في الصيد، أما الإمام ابن صخر فآثر أن يعمل خادمًا للمسجد، وإمامًا له بدلًا من الإمام القديم الذي كان مهاجرًا من بلاد الحكمة وسيعود إليها بعد أسبوع.

عَمِل فِراس مساعدًا لصيادٍ عجوزٍ يعيش وحيدًا في الجزيرة، فكان

يخرج معه في مركبه المتواضع، ويصطادون من لحوم البحر ما قدَّر لهم الله، فيأكلون منه، ويحمدون الله عليه، ثُمّ يبيعون ما فاض عن حاجة بطونهم في سوق السمك في الجزيرة.

استمر الحال على ما هو عليه لثلاث سنين، حتى مات العجوز، وأوصى بمركبه لفِراس الذي لم يدخر جهدًا في العمل عليه، فأصبح يخرج كل يوم بعد صلاة الفجر إلى البحر يَدُور فيه بقاربه، وبتصريح الصيد المعلقً عليه -الذي يخوِّله للأبحار حول الجزيرة دون أن يتعرض للمساءلة من قبل الأسطول البحري للملكة- يصول ويجول هنا وهناك حتى صلاة الظهر، فيعود للمسجد مصليًا مع الإمام ابن صخر، ثمّ يذهب بما اصطاد إلى السوق ليبيعه، وليشتري بعض أدوات الصيد كالطُعُوم والشباك، ويشتري بعض الملابس بين الحين والآخر، وما احتاج إلَيه في يومه.

كانت حياة متكررة رتيبة إلى حد كبير، ولكنه بالرضى كان يغمره منها السعادة والفرح، وكان يسعى لأن يكون أكبر تاجر سمك في المدينة؛ وإذا اجتمع الأمل والهدف والسعي والرضا مع طاعة الله، طابت الدنيا وطاب العيش فيها.

بعد مرور عامين من العمل في صيد السمك وتجارته، أصبح فِراس تاجرًا ذا صيتٍ في جزيرتي المهاجرين والتجار، وعمل تحت يديه صيادون شبابٌ آخرون من مهاجري أوستين وغيرها...(ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ). لقد كان فِراس رجلًا كريمًا،

في ماله حقٌّ معلوم للسائل والمحروم؛ يتصدق بجزء من ماله على فقراء الجزيرة، وعلى المهاجرين العائدين إلى بلدانهم، أو الوافدين إلى الجزيرة؛ فيبني لهم البيوت، ويتيح لهم فرصة العمل معه، أو يحاول أن يُهيّئ لهم من الأعمال ما يحترفون ويطيقون.

في يوم من الأيام، جاء وفد مهاجر من بلاد الشام؛ كان وفدًا عاديًا كوفود المهاجرين التي كثيرًا ما ترد الجزيرة، إلا أنه كان يحمل في طيّاته ما سيغير مجرى القصة ومصير بلاد العرب وكرمينيا. كانت أغلب نساء الجزيرة يعملن في الغزل، أو صناعة شباك الصيد، أو تجارة الطعام في المدينة؛ وفي جمعةٍ من الجُمَع، ذهب فِراس إلى السوق بملابسه التي تدل على أنه من كبار التجار؛ رداء أصفر طويلٌ يلامس كعبيه، وعمامة رمادية اللون، وسراويل بيضاء، وخاتم منقوشٌ عليه "فِراس عَبْدُ اللهِ" بشكلٍ عمودي في أعلاه لفظ الجلالة "الله"، وفي الأسفل اسم "فِراس"، وبينهما العلاقةُ بين العبد وربِّه "عبد".

وبالرغم من فخامة ثيابه، وجميلِ هندامه، كان متواضع المِشية، كثّ اللحية كشيخه ابن صخر الذي تعلّم على يديه ولم يفارقه حتى بعد أن كَبُرت تجارته واشترى بيتًا جديدًا. كان يتردد عليه بعد كل صلاة يسأله إن كان له حاجة يريد أن يقضيها له. كان يعوّض الشيخ عن برّ الابن لأبيه، وكان الشيخ يعوضه عن حكمة وحنو الأب على ابنه.

عندما دخل السوق مرَّ كعادته على سوق تجار السمك، فتفقد تجارته وأمور السوق والعمل، ثُمَّ ساقته قدماه دون أن يشعر إلى سوق القماش

الذي كان لا يذهب إليه إلا مرة أو مرتين من كلّ شهر، ولكنّه هذه المرة ذهب إليه للجمعة الثانية على التوالي. كان شرود ذهنه هو سبب أنه لم ينتبه إلى أنَّه قد دخل سوق القماش إلا عندما رأى ثوبًا أخضر يشبه ما كان يرتديه في أوستين قد جذب عينيه.

- بكم هذا، يرحمكم الله؟

قالها دون أن ينظر إلى القائم على الحانوت، فجذبه صوت حانٍ يجيب بلكنة شامية:

- بألف درهم، أيها السيد المحترم.

رفع عينيه، ثُمَّ لم يخفضهما كعادته إذا تحدث إلى امرأة. لقد اسكرته عيناها. كانت كحوريةِ بحر قد تمرّدت عليه، فخرجت من صفحته إلى البرِّ لتفتن الفتى بعينين بُنِّيتين تقطران عسلًا، وصوتٍ حنونٍ يهمس في الأذن برقة وتناغم، وقوام ممشوق طويل كوتر مضروب على عود؛ رقيقة كالفراشة، بيضاء شفافةً كالزجاج، كأنّ أسنانًها الؤلؤ؛ إذا تبسّمت أضائت ما حولها للسائرين في الظلام؛ واسعة الثغر، بأنف حاد لطيف، بيضاء الوجنتين، مخلوطتان بحمرة تسقي الظَمِئَ إلى الحنان عطفًا وودًا...لقد تاه الفتى.

ظلّ متسمرًا في مكانه، محملقًا فيها إلى أن أفاقته من سكرته بابتسامة حَييّة قائلة:

- هل يعجبك، يا سيدي؟

– أ..أ..أجل..أجل..بالتأكيد يعجبني. آآه...سأشتريه.

نَاوَلَها ورقة من فائة الألف.

– تفضل.

– شكرًا. هل يمكنني أن أسألك عن اسمك؟

– عذرًا ولكنّي لا أعرفك...وأنا غريبة عن الجزيرة هنا؛ أعذرني.

استدار فِراس وقد أحرجته بردِّها، ولكنّه ما زاده إلا انبهارًا بجمالها، وحيائها وما ظهر من جميل أخلاقها. كان قد تعرّق وجهه وراحتا كفيه من الخجل، وقضى الطريق عائدًا إلى منزله وهو يدندن:

إنَّ العيون التي في طرفِها حَوَرٌ

قَتلنَنا، ثمَ لم يُحيينَ قتلانا

يصرعنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حراك به

وهنَّ أضعفُ خَلقِ الله أركانًا

بعد أن لملم فِراس شتات أمره في خلوته في بيته، ذَهب إلى الشيخ الإمام ابن صخر.

– يا إمام...ما حكم من سَكِرَ من قليل؟

– أجننت يا ابن الجوديِّ؟ أتشرب الخمر، وتسأل عن حكمها قليلةً كانت أو كثيرة؟

- سكرت يا إمام بغير خمرٍ، وطفت الأرض بغير سفرِ.

- هل رأيت من أذهبت لُبّك يا رجل؟

- ذهب يا إمام كأنه نسيٌ منسيٌّ. أَشِر عليَّ يا إمام، فأنا الآن أخو الحيرة.

- أنت ميسورٌ يا رجل، ولم يُرَ للمتحابين مثلُ الزواج؛ فإن أحسست منها ميلًا إليك، وقبولًا فأتِ البيت من بابه، واطلب من أهلها الزواج بها، ألا يستدرجك الشيطان إلى ما لا تُحمَد عقباه.

أخذ فِراس بنصيحة الإمام، ولكنّه قبل أن يُقدم على زواجها أراد أن يتأكد من حُسن أخلاقها ونُبلِ فِعالها، وينظر في أمرها عن كَثَب، فالبيوت تُبنى بالأخلاق، لا بجمالَ العيون وحُمرة الخدَّيْنِ.

تردد على السوق الغزل بنفسه يشتري منها ما احتاج وما لا يحتاج، ويختبر أمانتها تارة فيعطيها أموالًا زائدة في باطن ما قبضت من ثمن ويرحل، ثمّ يجيء في اليوم التالي فيجد أنها قد كتبت في قصاصة ورق "مائة درهم للرجل المحترم الذي يسأل عن اسماء الناس" فتعطي له ما كان قد ترك من مال زائد. وتارةً يتهمها بأن ما اشتراه منها بالأمس من ملابس كان رديئًا، فتكابر بأن أهلها يصنعون أفضل المنسوجات، وتريه أن العيب إنما هو مُستحدَث، حتى إذا أصرَّ على تهمته لمنسوجات أهلها، جاءت أمها معتذرة له وردت إليه ثمن ما اشترى. وبعد عدة زيارات إلى حانوت الشابة الشامية -كما كان يسميها- تأكد من أنها المنشودة، فذهب لأهلها طالبًا يدها للزواج، فقَبِلُوه، وقَبِلَته، وكان العُرس.

- رهف اسمٌ جميل جدًا يصِفُكِ حق الوصف. لماذا أبيت أن تخبريني عن اسمك حينما قابلتك أول مرة؟

- كنتَ غريبًا عنّي يومها. وكما قالت أخت هارون الرشيد: نحن نساء مع رجالنا، ورجالٌ مع غيرهم.

- الحمد لله الذي رزقني إياك. (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا).

دخل العروسان بيتهما ودعا لهما الإمام ابن صخر:

- بارك اللهُ لكما وعليكما، وجمع بينكما في خير.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَإِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ).

- هيا يا سيدتي...ادفعي...قليلًا بعد...هيا!

- آآآهٍ...يا الله أفرغ عليَّ صبرًا.

- لا تقلقي، عزيزتي رهف...سيكون كل شيء على ما يرام، إن شاء الله.

- آآهٍ يا فِراس...إنَّ الألم لَيقسِمُ ظهري قسمًا.

أدرك المَخَاضُ السيدة رَهف -زوج فِراس: كبير تجَّار السمَكِ في جزيرة المهاجرين- في فجر يومِ الخميس، الخامس والعشرينَ من شهر

صفر، بعد عامين من زواجهما. لم يكن الألم هذه المرة مجرّد إنذار كاذب، كما حدث في كثير من المرات التي ينزل بسببها فراس مُهرولًا إلى أقرب قابلة، فتأتي لتجد أن الألم قد زال وأنه وخز الحمل ليس إلاَ.

– آآآآآه...يا الله!

تنادي ربّها الذي إليه المُلتجأ ومنه يُفَرُّ إليه؛ تتأوه بكل الألم الذي بداخلها، وانقطع مع هذه الآهة صوتها، وتناوبت مكانه الدموع.

– الطفل لا يتنفّس!

قالت إحدى القابلات مفزوعةً، ومنبهةً باقي القابلات ليتخذوا التدابير اللازمة لِكَهذه مواقف؛ ولكنَّ الجُملة وقعت على فِراس وقع الصاعقة، فنظر إلى زوجته وَجلًا أن تكون قد سمعت هذه الجملة، فتكون القشة التي تقسم ظهرها تمامًا، فتهوي بها إلى التهلكة، وهي التي بالكاد قد انتهت من ألم سحب الطفل من رَحِمها، فإذا بها في سكرات ألمها غائبة، لم تعي قول من حولها.

أخذت القابلات يضربن دُبُرَ الصبي المولود، ويفعلن بعض الحيل الطبية علَّه أن يتنفس. نظرت السيدة رَهف حولها، وقد بدأت تستوعب ما يحدث من حولها، فانهمرت منها دموع الحزن التي أبت إلا أن تلحق بدموع الألم التي سبقتها؛ كانت دموعًا صامتة: دموع من ليس له في الأمر حيلة، ولا حولَ له ولا قوة.

– اللهم يا واحد يا أحد، يا فرد يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد،

ولم يكن له كُفُوًا أحد، (اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)، يا من يُبْدأ الخلق ثُمَّ يُعيده، وهو أهون عليه، يا مُجيب المضطرين إذا دعوه، عِلمُك بحالي يغنيك عن سؤالي...ولا حولَ لنا ولا قوةَ إلا بك.

بعد عدة محاولات من القابلات، شَهق الطفل شهقة ضعيفة بقدر حاله، وزفر زفرة مشوبة ببكاء من جاء إلى الدنيا فنخزه الشيطان في بطنه، وليكون إيذانًا لِمَا جاء له أن يا إنسانُ اعلم أنْ (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)، واعلم عن الشيطان (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)؛ وليَهمس في أذَن أمِّه ألا تحزني، ولتقرَّ عينُها ولا تحزَن، ولتعلم أنَّ الله سميعٌ، قريبٌ، مجيب الدعاء.

خرَّ فِراس ساجدًا لله شكرًا وقد ابتلت لحيته بالدموع...دموع الفرح. أمَّا رهف فلم تملك إلا أن تشاركه البكاء رافعةً صوتها به كأنما تجيب وليدها: أهلًا بالجديد؛ وخرّت بقلبها ساجدة أنْ الحمد للهِ رَبِّ العالمين.

- إنَّه ذَكَر.

قالت لها إحدى القابلات وهي تناولها مولودها الأول. هرع فِراس إلى سرير رهف بعد أن سمع الكلمة. لم يكن يهتم كثيرًا بجنس المولود، ولكنّ كل ذي صفةٍ إليها يميلُ. جلس فِراس على ركبتيه بجانب سرير سيدته الرقيقة رهف، وقبضتاه الضخمتان تمسكان مُلاءة سريرها كقطٍ أليف، وبابتسامة طفلٍ صغير قد أرهقته كثرة الأحداث، موّزعًا عينيه

بين زوجته التي يزيدها تبسمها جمالًا، والدموع في عينيها كالندى على زهر الصباح، ومولوده الجديد الذي كان جسده يضاهئ كفة يدي فِراس في الحجم. نظرت إليه رهف وإلى وداعته، ونظرت إلى طفلها في حجرها فضحكت، متسائلة أيٌّ منهما الطفل؟ أذاك النائم في سكونٌ في حجرها، ام ذاك الذي ينظر بلهفة، يبتسم في وداعة وسلام؟

قبَّلت السيدة رَهف صغيرها، ونظرت إلى زوجها في حماسٍ تلا فتورًا وقلقًا وقالت:

- ما قولك في أن نسميه قاسم؟

- قاسم؟ يا له من اسم بديع، ولكن لماذا؟

- لقد قسم ظهر أُمِّه ليخرج للدنيا، فلعلَّ اللهَ أن يَقْسِمَ به ظهور أعدائه، وظهر الجهل والظلم الذي فشا في بلاد العرب.

ابتسم فِراس، وهزّ رأسه بالإيجاب، ثمّ نظرَ إلى قاسم نظرةٌ يملأها الأمل؛ وناجت أمُّه ربَّها:

- ربِّ إني وضعته ذكر -وسبحانك أعلم بما وضعتُ- وإنّي سمَّيتُه قاسم، وإنّي أُعيذُهُ بك وذُريَّتَه من الشيطانِ الرجيم.

أذّن فِراس في أُذن قاسم اليمنى بصوت حانٍ، وأقام الصلاة في أذنه الأخرى، ودعى الله أن يجعله صالحًا، وقال:

- (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ

الْمُسْلِمِينَ).

جاء الإمام ابن صخر ليبارك لفراس وزوجِه على مولودهما الجديد، ودعى لهما وله بالخير والبركة.

أرضعت رهف ابنها رغم ما أصابها من ضعف وإرهاق شديد بعد ولادته، ما أدّى إلى هزول جسدها، وشحوب لونها. لم تقدر على الإنجاب من بعده مرة أخرى، فبالكاد نجت من عملية الولادة الأولى، وهذا ما آثره فِراس فهو لا يتحمل فراقها.

عزم فِراس ورهف على تعليم قاسم من العلوم ما ينفعه؛ فلمَّا بلغ الرابعة من عمره أرسلاه إلى الإمام ابن صخر -الذي كَبُر وصار شيخًا في التاسعة والستين من العمر- ليعلمه اللغة العربية وبحورها، حتى إذا أصبح عنده منها رصيد كافٍ ليفهم من كلام القرآن الكريم وبلاغته، وأحاديث النبي الأمين، بدأ يعلمه أياهما، وكان قد بلغ الثامنة من عمره.

ومع مرور...الوقت كانت تجارة فِراس تزدهر، وبالأخص بعد أن دمج إلى تجارته للسمك تجارة الغزل والقماش التي كانت تبرعها عائلة رهف ومهاجروا الشام في سولين، ومع ذلك لم يهمل تربية ابنه فكان يعلمه السباحة والرماية وركوب الخيل، وكان يصحبه معه إلى الصلوات الخمس في المسجد، معلمًا له إيَّاها، ومحفزًا له على الحفاظ عليها؛ حتى إذا بلغ العاشرة من عمره، ضربه على الصلاة كأنما يضرب جسرًا على صفحة البحر. وكانت رهف -على تعبها ومرضها الَّذَيْنِ لازماها بعد الولادة- ترعى ابنها أيّما رعاية؛ فكانت تدارسه دروسه التي يتعلمها

من الإمام ابن صخر، وكانت تحثّه على ألا يضيّع صلاة الجماع، وتزين له أذكار الصباح والمساء والسنن الراتبة. كانا نعمَ الابوين لابنهِما، ولم يحرماه مما رزقهما الله شيئًا. (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا).

***

دمعت عينا الإمام قاسم، وتوقف برهة عن الكلام، ثمّ تلت دموعه المتقَطِّرة سيلٌ منها حتى ابتلت لحيته، فقال له القوم:

- هوّن عليك، يا إمامنا.

ثمّ قام طفل صغيرٌ ببراءة الأطفال يمسح دموع الإمام عن خدّيه بكفِّه الصغير؛ فنظر له الإمام مبتسمًا، ثُمَّ أكمل...

***

عندما بلغتُ العاشرة من عمري، صحبني أبي إلى إحدى رحلاته التجارية في جزيرة التجار. رأيت هناك جزيرة غير الجزيرة التي كنت أعيش عليها؛ رأيت هناك أعيان القوم يجتمعون للتجارة مع آخرين من شتى بقاع الأرض: عَرَب، وروم، وهنود، وصينيون؛ كان يُوجد هناك مختلف أنواع البضائع في الأسواق، ومنازل من طوب أبيض مشبع بزرقة كزرقة البحر. كانت هذه بيوت النزلاء من التجارً. ورأيت هناك قومًا آخرين، قومٌ الهوان في وجوههم، والعنت مستوٍ على ظهورهم، قد قست أيديهم من الأعمال المضنية، وشَعُثت شعورهًم من قلة الاهتمام بمظاهرهم وهندامهم، فقد كان هذا آخر ما يشغلهم.

- من هؤلاء، يا أبتِ؟

- هؤلاء أبناء جزيرة المنسيين، يا بُني. انتظرني هنا.

أخذت أتلفت حولي يمنة ويسرة، أملأ عينيّ بما أستطيع من الوجوه الجديدة، وألوان البضائعِ المختلفة، ثمّ رأيت أبي يحمل عجوزًا إلى دابتها، ورأيته يعطي أموالًا لآخر بدون أن يأخذ بضاعة مقابلها، ورأيته يمسح على رأس صبي في مثلِ عمري -يبدو أنه من المنسيين- ويهمس له بكلماتٍ مبتسمًا، فيبتسمِ الصبيِ، وكنت قد بدأت أحسب أن أبناء جزيرة المنسيين لا يبتسمون مما هم فيه من عنت وبؤس.

عدنا إلى جزيرة المهاجرين، فكنت فرحًا جدًا برحلتي، وبثقة أبي فيَّ، إذ أعجب بفضولي وتركيزي وحماستي، ووعدني أن يأمر لي بخاتم كَالذي يلبسه عندما أكبر وينقش عليه اسمي في جملة: "قاسم عبدُ اللهِ".

ولكن فرحتي لم تكن لتكتمل بدون أن أحكي لأمي على مغامرتي الجديدة هذه، فقد كانت بئر أسراري، والأذن التي لا تمل من قصصي الحقيقيِّ منها والخياليّ.

- أمي...لن تحزري ماذا رأيتُ في رحلتي!

احتضنتني أمي، وسمعتني بأذنها، ولكنَّ عقلها لم يكن حاضرًا، وكانت تنظر إليَّ وهي لا تبصرني، ثمّ أُغْشِيَ عليها

- أمي هل أنت بخير؟ أمي...أمي...

هرعت إلى أبي الذي طوى الأرض طيًا ليأتي بالطبيب بسرعة الريح.

- حالتها ميؤوسٌ منها. لقد بلغت منها الحمّة مبلغًا عظيماً. ليس لنا سوى الدعاء. أعطها هذا الدواء بعد كل وجبة، ولا تجعلها تجهد نفسها.

لم يطل الأمر كثيرًا. توّفت أمي -السيدة رهف- في يوم الجمعة، عن عمر يناهز الستة والثلاثين عامًا، وكنت حينها لم أبلغ الحادية عشرة من عمري. رَحَلت أمي فبكيتها ستة أشهر، ولم يكن قول أبي إلا (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، مخلوطًا ببكاءٍ مرير لم أعهده منه يومًا، ولم أره علَى ركبتيه ضَعيفًا هكذا إلا في الصلاة.

إنّ العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا لفراقك يا أمّاه لمحزونون لمحزونون، ولا نقول إلا ما يُرضي ربّنا، و(إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

ضَعُفَ جسَدُ أبي إذ قلّ طعامه، وكثر بكائه، وأصبح يخرج للصيد كثيرًا، وهو الذي لديه من الصيادين ما يُغنيه عن ذلك، ولكنّه وجد في ذلك من الراحة وإشغال البال ما وجد. واستمريّتُ أنا في مزاولة المسجد، أحضر دروس الشيخ ابن صخر حتى أتممت حفظ القرآن، وعددًا من الأحاديث النبوية بفضل اللهِ، وأنا ابن ثلاثة عشر ربيعًا.

- هيا...اقرأ علينا مما فتح الله عليك به، يا فِراس.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، (كهيعص...).

- لقد أوتيت من جمال الصوت يا بُني مالم يُؤتَ أبوك ولا شيخك.

قالها الإمام ممازحًا فِراس وقاسم فشاركاه الضحك، ووزعوا بينهم الابتسامات.

كان الإمام ابن صخر فيه من القوة والنشاط ما قد يغيب عن كثير من الشُبّان. وعندما سُؤل عن ذلك قال:

- تلك جوارحنا...حَفِظناها في الصِغَر، فحَفِظَها اللهُ لنا في الكِبَر.

- إن سُؤلت: من شيخك؟ فقل شيخي رسول اللهِ - ﷺ - وإن اُفتُخِرَ عليك ببلاغة الكلام، فتجمّل بالصمت. الصلاة الصلاة يا عباد الله وما ملكة أيمانكم، فتلك وصية رسول - ﷺ - واستوصوا بالنساءِ خيرًا. استودع الله دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم؛ استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

كانت هذه الوصيَّة الأخيرة لشيخي الإمام ابن صخر الذي توفّاه الله بعد أن بلغ الثامنة والسبعين من عمره. عمرٌ قضاه في تعليم الناس أمور دينهم، ونُصحِهم؛ فعسى الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناته، وأن يجزيه عنّا خيرًا.

تغيّر لون أبي وازداد ضعفه بعد وفاة الإمام، وحسبته والله يرجو الموت لولا أنه يخاف عليَّ الضيعة في الأرض. ولأن المصائب لا تأتي فُرادى، حدث مالم تعهده مملكة سولين بجُزُرها يومًا. لقد هاج البحر، وتعاظم موجه، فكأنه طَوْدٌ عظيم، وغمرت المياه جزيرتي الأعيان وثُلُثا جزيرة اللؤلؤة، واندثر تحت الماء كلُّ ما بناه المتعالون والمتبخترون في الأرض خُيلاء وما كانوا يَعرِشون. لم يبقى من جزيرة اللؤلؤة إلا

الجانب الذي يتفرع منه نهر الفضل إلى جزيرتي المهاجرين والمنسيين؛ فكأني بهؤلاء المنسيين وقد اُستُجيبَ دُعائهم وهم يرددون بعد أن أغرق الله من أذلهم وقهرهم وأعنتهم: (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

لم أعد أدري -بعد هذه الحادثة وما سبقها من موتٍ لاثنين من الأقربين لي- ماذا يحدث من حولي؟ وهل هذا البحر -الذي قال ليه عنه أبي وإمامي: أنه خير رفيق-صديقٌ، أم عدوّ؟



الفصل الرابع:
على دَربِ أبي

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ من ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَإِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

جزيرة المهاجرين - خريف عامِ ١٤١١ ميلاديًا / ٨١٣ هجريًا:

- من كان منكم يرى أن السلامة في الخروج من الجزيرة، فليرفع يده.

- أتريدون أن تنتظروا حتى يموج بكم البحر كما ماج بهم؟

- لن يكون؛ لن نخرج من بيتنا لعنت السفر كما فعلنا من قبل، أفبعد أن مَنَّ الله علينا بما مَنَّ؟

- إذًا من رفع يدَه للخروج فليتبعني، وسلام على من آثر المبيت في جوف الخطر، هذا فراق بيننا وبينكم.

- أذهبوا كما تشاؤون، وحيث شئتم. لن نكون آسفين على هلاك قومٍ عِنَاد.

تنازع القومُ بينهم أمرَهم بين مؤيد يؤثر الهرب من بطش البحر، ويهرب من قدر الله إلى قدره، ومعارضٍ يرى أن في السفر خطر أكبر

من البقاء في جزيرة آمنة منذ قديم الأزل، ولم يمسها البحر بسوء، ولكنَّه أهلك جزيرتي الأعيان والجوهرة لعتوهما وظلمهما وكِبْرهما، أمَّا هم فبعيدون عن ذلك كلَّ البُعد. وإذا اختلف القومُ، تفرّقوا؛ وإذا تفرقوا، ضعفوا وفشلوا، وذهبت ريحهم، وصاروا لقمة سائغة للمصاعب والمصائب، إلا من تولاه الله في جوفها.

كان أبي ممن تزعموا فكرة الخروج وحِزبه، ورأى أن في البقاء مخاطرة عظيمة، فنحن لا ندري أشرٌّ أريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربُّهم رَشدًا. وكان والي الجزيرة من ترأس مذهب أن السفر قطعة من العذاب، وأنَّا لسنا بقومٍ سوء ليعذبنا الله مثل هؤلاء المفسدين الذين تكبّروا وتجبّروا.

– أَمَا سمعت يا فِراس قول الله -تعالى: (وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)؟

– بلى، سمعت، ولكنِّي سمعت أيضًا قول رسول الله - ﷺ: (مَن رَكِبَ الْبَحْرَ عِند ارتجاجه فغرق، فقد بَرِئت منه الذِّمة)؛ فما بالك بمن يؤثر العيش في وسطه، وأمامه خيار الخروج من قدر الله إلى قدره. أفضل أن استغفر في طريقي إلى مدينة بمنأىً عن البحر.

أعدت الشرذمة القليلة العدة للهجرة إلى أرض جديدة؛ جماعة من الأوستينين والشامين وآخرون من أراض شتّى -غالبهم من العرب أو الفرس- يعيشون على جزيرة المهاجرين، ولكنّه لم يعد ذا أهمية من أين أتيت مهاجرًا، فنحن كلنا كنا على جزيرة واحدة أخوةً متحابين...إلى أن

تفرقنا واختلفنا، فصار كل حزبٍ بما لديهم فَرِحون.

– إلى أين ترون أن نوجِّه إبلنا؟

– يا كبير تجار الحيتان: فِراس...ما أرى من أرض أبسط نفوذًا، ولا أنسب لنا من مدينة الحكمة: أرض مسلمة، وثالث ممالكَ ثلاثة تَحكُم بلاد العرب، وكنا نتاجر معهم في جزيرة التجار في سولين.

– هل يوافق الجميع على هذا الرأي؟

– ما نرى إلا ما يَرى.

– إذًا على الله توكَّلنا. اللهمَّ أنت الصاحب في السفر...

جَهَّزوا سفينة، وأخذوا معهم فيها من الإبل والمؤنة ما يعينهم على سفرهم، وركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها.

ما أشبه اليوم بالأمس في ذاكرة فِراس الذي كان داخلًا للمدينة مع شيخه الإمام ابن صخر، فقراء ضعفاء فارين من الجراد، وها هو يخرج منها فارًا من البحر ولكنه اليوم هو الإمام لابنه قاسم.

نظرت في الأفق ساهمًا، وقلّبت بصري بين جزر سولين التي كانت بين خراب، وعمار.

– أبتِ...هل هو عدوٌ أم صديق؟

– أتقصد البحر؟

– أجل.

– إنه بحر يا ابن حبيبتي...ماء، وملح.

– ولكن كيف للماء -أساس الحياة ولَبِنَتُها- أن يكون سبب هلاكها في مكانٍ ما؟ أم تُراه الملح هو الذي أخل التوازن؟

ضحك أبي متبسمًا من فُكاهتي، وكنت قد اشتقت لضحكته التي غابت طويلًا بعد وفاة أمي والإمام ابن صخر.

– أتعلم يا بني؟ كان الإمام ابن صخر يحكي لي بعض القصص ليختصر عليَّ طريق السفر وأنا في هجرتي معه من أوستين إلى سولين. ما رأيك في أن أقص عليك بعضًا مما تعلّمتُه، وتقصُّ عليَّ بعضًا مما تعلّمتَه؟

– لا يضير.

– إذًا فاسمعني، وبقلبك أعقل ما يأتي على لساني. كان في غابر الأزمان، في بلادٍ هي أم البلدان؛ وُلِدَ طفلٌ لأمه...

كان موسى رضيعًا وُلِد لامرأة في زمانٍ أقل ما يُقال عنه أنّه أسوأ توقيت لطفل ليولَد فيه. كان لموسى أخٌ أكبرُ منه -يُقال أنَّه كان قد تخطَّى سِنَّ الفِطام حينها- يُدعى هارون، وأخت بلغت الرشد يُقال لها مَرْيَمْ.

– أفلتي ولدك، فهذا أمر فرعون...مَلِك مصر، ورَبُّكم الأعلى.

– وا بُنَيَّااه!

– مهلًا، يا أبتِ...أليست تلك مصر التي حدثتني عنها أنّه قد فشى فيها الطاعون، ويُصيبها الجراد بين الحين والإخر كأوستين؟

- أجل، يا بني؛ ولهذا لم نذهب إليها إذ خرجنا من أوستين. دعني أكمل لك.

كانت أم موسى تخاف على أن يكون مصير وليدها الجديد موسى مصيرَ باقي ابناء بني إسرائيل في مصر الذين ولدوا في نفس العام الذي جاء فيه موسى للدنيا. كانت مصر بلدًا ذات قوةٍ ونفوذ، ولكنّها كانت مرتعًا للظلم والظالمين، والمتكبرين، والجهلاء، والفاسقين. كان فرعون -ملك مصر- طاغيًا، ظالمًا، قد قسّم أهلها شيَعًا، يستضعف طائفة منهم يُذبّحُ ابنائهم ويستحي نسائهم.

- هذا يشبه إلى حدٍّ كبير ما كان يصدر من إذلال وتشييع واستضعاف من أعيان وأمراء سولين تجّاه المنسيين والمهاجرين.

- أجل...تشابه الظُلم، واختلفت الأزمان...(تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ).

قرر فِرعون -لرُؤيا رآها- أن يقتل أطفال بني إسرائيل الذين يولدون في عام، ويذرهم في آخر. كان هارون قد وُلِدَ في عام السماح -هكذا أسميه إذ كان يسامح فرعون من وُلِد فيه، وكأنما يُولد الأطفال باختيارهم وإرادتهم، أو أن تأتي إلى الدنيا فهو جريمة في حق فرعون- بينما قُدِّرَ لموسى أن يُولد في غير أعوام السماح، فكان في حقه القتل عند فرعون إنْ علم جنوده بأمره.

كان أمام أم موسى خيارٌ لا ثانيَ له أوْحَاهُ لها ربُّها: (أَنْ أَرْضعيه فَإِذَا خِفْت عَلَيْه فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ).

- واليمُّ -يا قاسم- هو النهر العظيم: ماء، ولكن بدون ملح.

تبادلنا الابتسامات ونسينا ما نحن فيه من هجرة وترك للمُقَام، فلقد أخذت القصة بنا إلى زمان نبي الله موسى -عليه السلام.

- وهل كان نجاة موسى في اليمِّ؟

- (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ).

لقد قاده اليَمُّ إلى عَرين الأسد، وكاد فرعون أن ينقَضَّ عليه، رُغم مكانة النيل في مصر وما يُقدمُّه للمصريين؛ ولكنَّ الله أنقذ موسى بزوجة فرعون، وأنقذها فيما بعد من النَّار بموسى؛ فقالتْ: (قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).

ولأن المرأة إذا تمنّت، لبَّى رَجُلُها؛ وافق فِرعون ولكنّ حبّه لمُلْكِهِ كان أعظم، فكان شرطه أن يفشل موسى الطفل الرضيع في اختبارٍ بسيط لأي طفل عادي: يختار جمرة مشتعلة من بين طبقين يحويها أحدهما، والآخر به تمرة. فلمّا كان موسى غير عادي كادت يده أن تمسك بالتمرة، لا ما يجذب الأبصار من ضوء النار وبريقها، فليس كل ما يجذب البصر ينفع الجسد؛ ولكنّ أمر الله نافذ، وهو على أمره غالبٌ، فقاد يده إلى الجمرة التي مالبث أن وضعها موسى على لسانه قبل أن تصيبه حرارتها بألم، فكانت قد أضرّت بلسانه ويده.

من خوف الأم وأخذها بالأسباب، أرسلت أخته عينًا لها ترقبه

إلى أين تأخذه عناية الله التي تحميه من الماء الجاري، ومن ذي البطش الغاشم فرعون. رأت أخته حِيرَتَهُم، وعلمت ما تناقلوه من أمرهم: أن هذا الطفل قد أبى كلّ مرضعة، ونفدت الحيلة من عندهم؛ فجائتهم بالبشرى أنها تعلم من لهذه المهمة التي عجزت عنها النسوة. وردّه ربّه إلى حضن أُمِّهِ، وقرّ به عينَها، لكيلا تحزن، ولتعلم أن وعد اللهِ حقٌ ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون.

كَبُرَ موسى وشبّ في بيت الذئاب، مترددًا بين أحضان أُمِّه التي ولدته وأرضعته، وزجة فِرعون الحانية التي تُرَبِّيه. ثُمَّ أصابَ موسى جُرمًا عن غير عمدٍ، فهجر مصر وأهلها، وأتى مدين وبئرها، وقادتاه قوته وأمانته -بتدبيرِ الله- إلى بيت من بيوت أهل الحياء والتقوى، فكانوا له نِعمَ الأهلُ والمستقر، حتى عادت به مشيئة الله إلى مصر.

وفي الطريق، كان الذي نُبِذ بين القوم واسْتُهْزأَ به لعقدة لسانه، وقلة فصاحته، وشُحِّ بيانه، على موعدٍ مع ربٍّ ودود لَطيف، غفور رحيم، أن ائتِ -يا موسى- القوم الظالمين؛ ولكنَّ موسى كان لا يزال يشعر بالندم على فعلته التي فعل، وخجل من التباس كَلمَته، وفقر بلاغته، فطلب أخاه مؤازرًا، فكان له هارون ليشدَّ الله به عَضُده، ويقوي به شوكته، وكان الله معهما يسمع ويرى.

تكبّر فرعون وتجبّر، وأبى ما قالاه وأنكر، فجمع السحرة وأتى بالناس أجمعين، لعلّهم يتبعون السحرة إن كانوا هم الغالبين؛ فألقوا ما هم ملقون، وقالوا: بعزة فِرعونَ إنَّا لنحن الغالبون، (فَغُلِبُوا هُنَالِكَ

وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ).

فما كان من فرعون إلا أنْ اغتاظ واشتاط، وفكّر وقدَّر وكاد، وبعد أن حل عليه عذاب أصغر من أشد العذاب: جراد وضفادع وقُمَّل، كشفه الله عنه إذ قال: لأتبعنّ موسى لإن انكشف عني العذاب؛ فنَكَثَ وانتكس، وجمع الملأ وتشاور بهم؛ فرأوا أن موسى وقومه مذنبون، (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ). كان هذا لهم استدراجًا، إذ حكم الله عليهم بأن يأخذهم أجمعين، (فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ).

فلَمَّا تراءا الجمعان عند البحر، ظنُّوا أنهم قد أُدركوا، وأنَّهم من موسى قد خُذلوا؛ وجاء فرعون متبجحًا بقوله: (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)؟ فقال موسى بهوانه على النَّاس، وقوة إيمانه، وبساطَة بيانه، وعُقدَة لسانه: (كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)، فما كان إلا نصر ربّه له، (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)، وأَزْلَفَ رَبُّنَا ثَمَّ الآخرين، وأنجى موسى ومن معه أجمعين، وأجرَى الأنهار من فَوق فرعونَ والآخرين، ذاكَ هو أخذ المنتقم القويِّ المتين؛ (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ).

– وماذا حلّ بامرأة فِرعون؟

– أخذ فِرعون منها دُنياها، فأعطاها الله بيتًا في الجنة نعيمًا في أُخرَاها، وامَّحى ذِكْرُ فِرعون بزوال آثاره، إلا ذكر السوء عنه بما أورده الله في كتابه، وبقي جميل ذِكْرُ امرأة فرعونَ في الأرض إلى أن تجيء الساعة بمُرسَاها.

– وماذا حدث لبني إسرائيل بعد ذلك؟

– (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ).

– هذا يُشبه كثيرًا حال أهل سولين المتكبرين الذي كانوا يقولون أنَّهم أسياد البحر ومُلوكه، وعثوا في الأرض فسادًا.

– أجل، يا بُنَي. وما أشبه حالهم أكثر بحال قارون والذي كان فّرْدًا من قوم موسى، ولكنَّه بغى عليهم.

كان قارون شخصًا عاديًا من قوم موسى ¬-عليه السلام- ثُمَّ منَّ الله عليه بكنوز تنوء مفاتِحها بالعصبة أولي القوة، وزينة يتبختر بها ويتمختر متفاخرًا، حتى أنَّه لِيتمني الذين يريدون الحياة الدنيا ما أوتيَ قارون قائلين: (إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ).

خان فِرعون قومَه باغيًا عليهم، ظالمًا لهم، آكلًا حقوق ضعيفهم، متكبرًا عليهم بعلياء مكانته، وجمال زينته، حتى قالوا له: (لَا تَفْرَحْ إِنَّ

اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ).

فرد عليهم ببجاحة قوله، وتكبُّر لسانه: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي).

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ).

- يا بُني، إن الله يُبغض الكافر بنعمته، الجاحد لها، الذي يأخذ ولا يشكر وهو لا يستغني عن فضل مولا -تبارك وتعالى. ولذلك بغض الله المرأة التي تفعل ذلك مع زوجها، وجعل أكثر أهل النار من النساء لتفشي هذه الخصلةِ القبيحة فيهم مع أزاجهنَّ.

إنَّ الله يُمهِل، ولا يُهمِل.

أخذ الله قارونَ بذنبه -تكبُّره- وكذلك يأخذ الله الظالمين؛ (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ). خرج يومًا قارونَ على قومه في زينته كعادته، وهو يحسب أن لن يَقدرَ عليه أحد.

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ)؟

فأتاه الله من حيث لم يحتسب، وقذف في قلبه الرعب، وخسف به وبداره الأرض، (فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا

وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ).

– أجل يا بُنَي، هذه سُنَّة الله في أرضه وعباده وخَلْقه، (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ). حتى إبليس الذي لم يكن آدميًّا، إلا أنَّ الله قال له عندما تكبَّر إبليس عن السجود لآدم بأمر ربِّهما له: (فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ).

وصلنا إلى البرِّ أخيرًا، ولكنَّه ليس بَرَّ الأمان بعد، فلا زال أمامنا مسيرة شهر لنقطعها في الصحراء إلى مدينة الحكمة: وجهتنا المنشودة، وأملنا في الاستقرار.

كان أبي قائد القافلة إذ كان أوسعهم علمًا، وأكثرهم مالًا، وأوفرهم حلمًا، وأرجحهم رأيًا. وكان لنا في الطريق دليل في صحرائها الشاسعة... يهدينا الطريق فيها. كان رجلًا ذا خبرة وأسفار فيها، خرج في تجارات عدة لمدينة الحكمة وغيرها من البلدان؛ رجلٌ بلحية قصيرة، لا تكاد تفارق وجهه قيد أنملة، وعينين هادئتين، وشعر طويل؛ قليل الكلام، طويل الصمت، يؤشر إلى اتجاه المسير ولا يتحدث إلا لِمامًا. كنّا قرابة المائة نفر في القافلة المتجهة إلى مدينة الحكمة، وكان هذا فصل الخريف: أنسب الفصول للسفر إلى هناك.

– دورك الآن يا قاسم.

– حسنٌ حسنٌ. ما رأيك في قصة نبي الله يوسف –عليه السلام؟

- مصر مرة أخرى؟

قالها أبي مبتسماً.

- أجل، يبدوا أنّ تلك الأرض قد حوت كثيرًا من القصص العظيمة.

استمرّ الأمر على هذه الحال، نسري ونسير، ونتبادل القصص على طول المسير؛ تارةً نحكي قصة نبي من الأنبياء، أو صالح من الصالحين، وأخرى يخبرني أبي عن أوستين: موطنه.

- إذا سرت في هذا الاتجاه مسيرة نصف شهر، ستصل إلى أوستين - يا قاسم- مهد أبيك، ومرعى بلاد العرب...أو كذلك كانت.

كان صوت أبي يتهدج، ويخلطه دمع العين عندما يتذكر أوستين، وما عاشه فيها، ووالدته وأختاه والإمام. أمَّا أمي فكانت دائماً ما تجول وتصول في ثناياه بدون وقت، ولا استإذان؛ فكانت دموعه تنهمر فجأة دون سابق إنذار. وما زاد الطِّين بلَّة هو أني كنت ذا شبهٍ كبير بها؛ فورثت عنها عينيها العسليَّتَيْن، وأنفها الحاد، وبياض بشرتها المشبعة بحمرة، وورثت عن أبي شعره الأسود، وجسده العريض، وقوامه الرجولي القوي، وطوله الفارع؛ فكان يتحاشا النظر في عيني مخافة أن يراها فيهما، وإذا وقعت عينيه عليهما صدفة أخذ يغور في صمته وأحزانه. إنّ جرح الأبدان يُطَبَّب، أمَّا جرح الروح فلا يندمل بشراب ولا عشبٍ، بل يبقى حتى يندثر تحت طبقات الزمان، لكنه لا يزول.

- الطبيب يا قوم، أين الطبيب؟

سقط أبي فجأة عن راحلته. لقد أصيب بالحُمّى، فضلًا عمَّا كان قد أصابه من الهُزال في هذا السفر الطويل.

– دعنا نخيم هاهنا يا أبي ليومين حتى تستردّ عافيتك.

– لا يا بني. يجب أن أصل بالرَكْب إلى مدينة الحكمة قبل أن يحل الشتاء ويشتَدّ البرد. أنا قائد القافلة ولَن أكون عِبئًا عليها.

أكملنا الظعن في الصحراء لا نلوي على شيء، ونجتاز كل وهدٍ ونجد، ونرقب كل صُوىً ومَعْلَم على مدينة الحكمة وطريقها؛ وكانَ أبي يجاهد آلامه والحمَّى، ويأخذ دواءً كان مع القافلة وصَّاه به الطبيب. إنّ الحزن إذا أصاب قومًا فتك بهم، والحزن سلاح الشيطان، يريد به ضُرَّ الذين آمنوا ليهلكوا به، وليس بضارهم شيئًا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

إن أمي لم ترحل بجسدها وحنانها وصوتها فقط عن دنيانا، فقد أخذت معها نضارة أبي وعقله وقلبه، حتى ضوي جسمه، وعجف، فتمكنت منه الحُمّى، وبدا أن شبح الموت قد خيّم على طلَّتِه، وأنه ما عاد يرغب في الدنيا، بل وصار فيها زاهدًا. لولا أنّه كان يرعاني -وكلُّ راع مسؤول عن رعيته- ولولا نهي النبي - ﷺ - عن تمنِّ الموت، لقال يا لَيتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا. لقد نسيَ أبي قول جبريل -عليه السلام- لرسول الله - ﷺ: (أحبب من شِئتَ فإنَّك مفارقه)؛ فأحبَّ أمي حبًا يذهب بالألباب والأجساد.

– يا بني...خُذ عني ما سألقنك إياه في سفرنا هذا من وصايا تعمل

بها في دنياك، وتنفعك في أُخراك.

قالها لي وهو راكب على دابته، مستسلمًا للحمّى، وممسكًا عنان دابته بيدين واهنتين.

- يا بني...إني قد بلغت من الأمر ما ترى، وفاقني فراق الأحبة، ولست على قدر الله ساخط، ولكنّ نفسي على فِراقهم لا تقوى ولا تَحتمل؛ يا بني...إنّا مقبلون على مدينة لا نعلم أَهلها، ولا طباعهم، ولا صفاتها، فخذ حِذرك، فإنّ الناس إذا استهانوا بك هانوك، وإذا استغلظوك جَفَوْك، وإن احسنت إليهم اعتادوا إحسانك، فإن غاب عنهم يومًا صار سوءً منك؛ وإن أحسنت لهم الدهر كله وخانتك يومًا محاسنك، صرت عندهم مذموم خطّاء؛ ولا ينسى خطأك إلا من صَفَت لك سريرته، وظنّ بك من الظنِّ أحسنه؛ لذلك اعمل الخير ابتغاء وجه الله وحده، ولا تنتظر من أحدٍ مقابلًا. واعلم أن من اغتاب معك الناس، فسيغتابك مع غيرك، ومن مدح معك الناس، فسيمدحك -إن رأى فيك خيرًا- مع غيرك. يا بني...إنّي بحثت في كثير من النصائح والوصايا، فلم أجد أشمل من قول النبي - ﷺ - لابن عبّاس أن: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأُمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَت الأقلام، وجفّت الصُحُف). وبحثت في كثير من الوصايا، فلم أجد أبلغ مما قاله

الله -سبحانه وتعالى- في قرآنه الكريم من وصايا لقمان -ذي الحكمة، ومن يؤتَ الحكمة فقد أُوتيَ خيرًا كثيرًا- لابنه أن: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)، ووصّى ربّك الإنسان بوالديه، فانتبه لجدك وجدتك فهما ما بقيا لك من أمّك، أمّا أنا فيبدوا أنّي أبيت إلا اللحاق بها. واعلم أن الله ذو قدرة نافذة...(إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ). أي بني... إنك قرّة عيني، وابن حبيبتي وزوجتي، فاعلم أنّ لنا لقاء عند ربّنا في جناته إن كنّا من الصالحين، فاعمل صالحًا، وإنّي لأرجوا من الله أن يتوب عليّ وأن يقبلني في الصالحين، أنا وأنت وأهلينا أجمعين. أي بني... اتق الدنيا فإنها غرورة، واتق النساء فإنّهنّ أشد الفتن على الرجال، وإنَّ رسول الله - ﷺ - لم يرَ أذهبَ لِلُبِّ الرجل الحازم مثلَهُنّ، فلا يحتنكنّك الشيطان بهنّ فتغوى، ولا تجتذبنّك امرأة في حرام فتردى، والزنا كان فاحشةً وساء سبيلًا، فلا تقربنَّه؛ وانئَ عن الخمر، فإنّها أُمُّ الخبائث، ولا تموتنّ إلا وأنت تحسن الظنّ بربِّكَ؛ واعلم أن الله غفَّار للذنوب، واعلم أنّهُ شديد العقاب. استودع الله دينك، وأماناتك، وخواتيم أعمالك... استودعكَ الله الذي لا تضيع ودائعه.

لم يلبث أبي بعدها إلا خمس ليالٍ ثُمَّ مات. كنّا على مشارف مدينة

الحكمة، وكان قد سلّم زمام القيادة لأحد أصدقائه الأوستينيين الثقات، وكان أهلًا لها، حتى وصلنا إلى مدينة الحكمة بعد مسير يوم وليلة. لم يعش أبي ليراها، ولكنّا أبينا إلا أن ندفنه فيها؛ فلقد عاش ترحّالين بين ثلاث ممالك عظام في بلاد العرب، فما كان لنا أن ندفنه معلّقًا بين المدائن في الصحراء.

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما

ظنّا كلّ الظنّ أن لا تلاقيًا

عسى أن يكون لنا لقاء يا أبي، عند ربٍّ رحمن، كريمٍ غيرِ غضبان؛ وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

***

الفصل الخامس:
مدينة الخطيئة

مدينة الحكمة - خريف عامِ ١٤١١ ميلاديًا / ٨١٣ هجريًا:

وصلتُ إلى بلاد الحكمة وكنت قد قاربت السادسة عشر من عمري. تقع مملكة الحكمة في جنوب جزيرة العرب وكانت سطوتها على كل جنوب الجزيرة. عاصمة مملكة الحكمة هي مدينة الحكمة؛ تحدُّها الأسوار العالية، وتحيط بها مساكنٌ مجاورة لمهاجري أوستين وغيرها من المدن والقرى الواقعة تحت حكمها وسطوتها، وبعض المزارع القليلة التي يعملون بها، وهي ما صارت مصدر دخلهم من الزروع مع ما يأتون به -أحيانًا- من الهند أو الروم في جزيرة التجار بعد هلاك أسطورة واحة الصحراء أستين؛ ويحد مساكن المهاجرين سياج آخر يتصل بابه بسور المدينة عن طريق ممر أسطواني طويل مغلق الجوانب، ولا يدخل منه إلا الوافدون على مدينة الحكمة؛ أمَّا المهاجرون القاطنون حول أسوار المدينة، فلهم ثلاثة أبواب يدخلون منها، كل باب لضلع من أضلع سور المدينة. وكان على أسوارِ المدينة رجالٌ غِلاظ شداد، تحسبهم لم يخلقوا بقلوب تنبض كباقي الخليقة؛ وكانت الأَسوار تحجب ما ورائها إلا نخلًا باسقات لها طلع نضيد، وكانت المدينة تشتهر بهذا النخل الطويل المنتشر في جميع أرجائها، وتتاجر بتمره وعجوته مع البلدان المجاورة.

وقفت القافلة عند مدخل المدينة الضخم، والذي كان مكتظًا بالحراس المدججين بضروب من الأسلحة المختلفة.

– عرِّفوا عن أنفسكم.

– نحن قافلة مهاجرة من جزيرة المهاجرين في مملكة جزر سولين، جئنا بعدما أصابها الطوفان العظيم لاجئين إلى بلادكم، لاحقين ببعض من إخواننا الذين هاجروا آنفين من مدينة أوستين.

– طوفان! هل تقول أنَّ سولين قد غرقت؟

– بعضها.

– ماذا تقصد ببعضها؟

– أقصد جزيرة الأعيان، وجزء من جزيرة الجوهرة؛ إنه غضب الله على الظالمين.

– حسنًا انتظروا عندكم

همهم قائد حرس مدخل المدينة لجنديٍّ عنده بكلمات ما أن سمعها حتى انطلق مسرعًا كأنما يفِّر من قَسْوَرَة. بعد فترة من الزمن عاد الجندي ليرد الهمهمات إلى سيده في أذنه ثم نظروا إلينا برهة متوقفين عن الكلام، ثم أكملوا تهامسهم وتشاورهم في الأمر، ثُمَّ قال قائدهم:

– حسنًا... سيتم تفتيشكم لدخول المدينة، ولكنَّ أمركم لا زال يُنظّرُ فيه حتى نتأكد من صحة خبركم العظيم هذا، وأعيننا في كل مكان في

المملكة، فاحذروا الإفساد فيها.

دخلت القافلة بعد عملية طويلة من تقليب المتاع وهزِّه أخذ فيها الجنود بعضًا مما كان معنا من طعام، وعشرين من نوقنا كضريبة لدخول المدينة، وأخذوا سلاحنا الذي كُنّا نحتمي به من مخاطر الصحراء وأدخلونا بالقليل، وقالوا لنا أن نسكن بجوار المهاجرين الأولين على جنَبات أسوار المدينة، وأنَّه لا يحلُّ لنا دخولها إلا للتجارة أو العمل.

اتخذنا مساكن لنا بجوار المهاجرين الأوستينيين الأولين على الجانب الشرقي من سور المدينة المربَّع الشكل. كان الأمر شاقًا جدًا على عكس ما حكاه لي أبي عن جزيرة المهاجرين أول ما دخلها؛ فلقد ضربنا الخيام أشهرًا طويلة حتى جنينا بعض المال لنحضر من المدينة قوالب طينية جافةً للبناء، وهو ما كان يبني به المهاجرون أكواخهم ومهاجعهم، أمّا أهل المدينة فكانت بيوتهم من طابقين أو ثلاثة من الطوب المستخرج من الجبال الصخرية المجاورة للمدينة؛ وكانت بيوتهم مدهونة بزخرف الألوان وجميلها. وكانت ملابس الرجال في مدينة الحكمة متنوعةً لا تحسبها تهتدي لتقاليد أو أجداد؛ أمّا النساء فكن بين متبرجات خليعات، أو كاسيات عاريات، او محتشمات لزينتهن مواريات.

لقد كان جدي وجدتي يتقنان الغَزْلَ هما ومعظم المهاجرين الشاميين معنا، فكانت حرفتهم ومصدر رزقهم، أما الأوستينيون فكانوا أهل زراعة، فعمل كلٌ فيما يتقن من الاعمال. كنّا نذهب لسوق المدينة، والذي كان كالممر المستطيل الشكل في وسط المدينة، ويفصل بينه وبين

قصر الملك في وسط المدينة بيوتٌ ومنازل فاخرة، ونخل كثير يتخلل بين منازل المدينة؛ كما يفصل بين السوق وأسوار المدينة منازل أخري أقل بهرجة من المنازل السابق ذكرها، ولكنها أفضل من منازل المهاجرين على أية حال؛ كنا نبيع هناك ما حصدنا وما غزلنا؛ فما ربحنا من مال كنّا ننال أربعة أخماسه، وندفع خمسه ونحن خروجٌ عند باب المدينة التي كثرت فيها الجباية والشَقُّ على المهاجرين.

إنَّ الغزل لمهنة صعبة تحتاج إلى خبرة سنين طويلة، فلم يكن من الحكمة أن أضيع وقتي وقُوَّتي في تعلّمها، كنت أطمع في عمل أكثر تقديرًا لقدراتي العلمية والجسدية، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يناله؛ فكنت أساعد جدي -رشيد- في حمل ما غزله هو وجدتي -رحيل- للسوق، ثّمَّ أساعده في البيع هناك، وحين لا يكون معه من غزلٍ ليبيعه ¬-حيث أن الغزل كالزراعة، له فترة نماء وأخرى للحصاد- أذهبُ للعمل في حقول المزارعين الأوستينيين على أطراف المدينة، فألاقي من العنت الأمرَّينِ، ولا أنال من الأجر إلا دراهم معدودة كانوا فيها من الزاهدين. استمر الأمر على هذه الحال حتى بلغت العشرين من العمر، فقررت أن ابحث عن عملٍ جديد بأن أهدر فيه وقتي وطاقتي، أعيل به جدي وأُمِّ أُمِّي اللَّذَيْنِ قَدّ أضناهما الهِرَم، فما عادا قادرين على أن يوفِّرا من الغزل ما يُعيلناَ.

في إحدى المرات التي كنت قد دخلت فيها إلى سوق المدينة لأتاجر بما غزل جدي وجدتي من قليل الأقمشة والملابس، ساقتني قدماي بين

الحوانيت، فسرت أتفقدها وأنظر فيها باحثًا عن شيء عساه يجيبني عن طلبي في عمل جديد، فوجدت الحدادين والنجارين والنساجين وبائعي المسك وبائعي الذهب والفضة والمعادن النفيسة وبائعي مواد البناء من حجارة وملاط وغيرهما؛ ووجدت حانوتًا لم أكن أراه إلا في جزيرة التجار، كان هذا حانوت البهارات والتوابل، وقد حكى لي أبي عن أنّ مدينة الحكمة هي المصدِّر الأول له في بلاد العرب ولا ينافسها فيه إلا بلاد الهند. خياراتٌ كثيرة للعمل ولكني لا أتقن من الحرف إلا الصيد، وركوب الخيل، وما من بحر قريب هنا لاصطاد؛ وفكّرت في أن أعمل في تعليم الصبية ركوب الخيل، فمدينة الحكمة كانت مرتعًا للخيول الأصيلة، واصطبلًا كبيرًا لها، ولكنَّ هذه مهنة نبيلة عندهم... أشرف من أنْ يتركوها لمهاجر يلتجئ ببلادهم؛ أمَّا عن تعلم حِرفٍ جديدة، فما كان أحدهم ليقبل بتعليم مهاجر، فالأولى عندهم أن يعلم كلُّ ابنَه لينقل إليه حرفته وخبرته، أمَّا التجارة فكان الأمر فيها أنْ أعمل خادمًا لدى التاجر أحمل له متاعه، وأسوق له نوقه، وأرعى له خيله، وأحضر له طعامه وشرابه.

أرشدني جدي إلى رجل أوستيني، وقال لي:

– لقد أوصاني أبوك قبل موته أن أعهد بك -إن ثقل عليَّ حملك- إلى رجل في مدينة الحكمة يُدعى عمَّارٌ بن بشير، فقد كان ابن جار أبيك في صغره، وكان هذا الرجل يأتي -في بعض الأحيان- ليتاجر في جزيرة التجار، والتقى والدك به هناك عدّةَ مرات. لقد حكى لي والدك عن أنهما

كانا يُكثِران اللعب معًا في الصِبا قبل أن يفرِّق الجراد أهل أوستين بين أطراف الأرض. وإنّي يا بني قد ناهزت العُمْرَيْن، ولا بد لك من عملٍ آخر تعيننا -بل تعيلنا- به أنا وجدتك.

- فِراس بن جودي! لقد عدا الزمان سريعًا والتقيت بابن صديقي القديم. كيف حالك يا فتى وكيف حال فِراس؟

كان رجلًا في الأربعين من العمر، طويل القامة، عريض الخشبة، غليظ الصوت حتى إذا تكلم تحسبها ترعد.

- لقد تُوفيَّ أبي منذ أربع سنوات، وقال لي أنك صديقٌ له، فهل لي من عمل عندك أعيل به أهلي؟

- إنا لله وإنا إليه راجعون؛ رحم الله أباك، كان صديقًا وفيًا، ورجلًا صادقًا. جئتَ أهلًا، ووطِئتَ سهلًا يا ابن فِراس بن جودي. صحيح أنني تاجر قطن ذو أراضٍ واسعة ولكنّي لا أجد لك عندي عملًا، فلدي من العمالٍ الكثير، ولكنك ابن صديق عزيز، ولذلك سأرسلك إلى صديق لي في المدينة هو تاجر سَجّاد كبير لتعمل عنده مع فتيانه بأجرٍ جيد. ولا تقلق سأوصيه بك خيرًا.

لم أحسب أنَّ مهاجرًا يمكن أن يصل لهذا القدر من الثراء في هذه المدينة، ولكن يبدوا أنَّ الله قدَّر لهذا الرجل رزقًا عظيمًا في هذه المدينة رغم أنف أهلها. كان عالمًا بزراعة القطن ومعالجته، ومن ثَمَّ يبيعه للنسَّاجين، وكان جدي وجدتي يستخمون بعضًا من قطنه في عملهما.

- مرحبًا يا صديقي العزيز صالح! كيف حالك؟ يبدوا أنّك قد فقدت بعض الوزن.

كان تاجر السَجّاد ذالك قصير القامة، عظيم البطن، ممتلئ الوجه، كثيف اللحية والحاجبين، يبدو عليه الجشع، وتعرف في وجهه المنكر.

- كُفّ عن المداهنة يا عمَّار وقل ما حاجتك.

- لازلت غليظًا كما عهدتك. حسنًا...تعال يا قاسم! هذا ابن صديق لي يبحث عن عملٍ، وعلمت أنك تحتاج إلى فتىً جديد يساعدك في تجارًتك.

- جيدٌ جدًا. يبدوا أنك قوي البنية يا فتى وهذا ما أحتاجه. ماذا تتقن.

- الصيد، والسباحة، والرماية، وركوب الخيل، ولي خبرة في التجارة، يا سيدي.

- حسنٌ جدًا ستبدأ العمل عندي من اليوم. اذهب الآن بهذه الناقة مع سامي، وأحضر معه بعض السّجاد من بيتي...سامي...اعتنِ به.

- أمرك، يا سيدي.

- استوصِ به خيرًا في المعاملة والأجر يا صالح.

- لا تقلق، سأعامله كما لو كان ابنًا لي.

لم تبدُ نبرته وهو يقولها كنبرة شخص صادق، ولكنَّك لا تستطيع إلا

أن تأمل أن يخيب حدسك في كهذه مواقف.

ذهبت أنا وسامي بناقة عظيمة ذات سَنَمَينِ لم أرَ مثلها قط.

– أنت من المهاجرين أليس كذلك؟

– أجل...من جزر سولين.

– إذًا لم تكن تكذب بشأن أتقانك للسباحة.

– أنا لا أكذب يا هذا.

– كلهم يقولون ذلك.

كان سامي فتىً في مثل عمري، طويل القامة، رفيع الجسم، مستطال الوجه، به لحية خفيفة، وكان أبيض البشرة، أسود العينين والشعر.

–هاك...ماذا؟ ألم تتوقع أن السجاد ثقيل لهذه الدرجة؟

قالها وهو يضحك بلؤم، ولكني كنت مفتول العضلات فلم يكن حمل بعض السجاد ليجبرنيَ على إحناء ظهري أمام أحد، خصوصًا في هذه المدينة.

– لقد فاجئني وزنها فقط.

– اعتد على ذلك، فأنت ستكون حامل السجاد في فرقتنا مع خالد، وسترعى الخيل في الاسطبل مع سعيد.

عدنا إلى التاجر بعد نصف ساعة شمعية، ولم يكن هذا بالكثير نسبيًا. لم تكن الساعات الشمعية مألوفة عندي قبل مجيئي إلى مدينة الحكمة،

فقد كنا نستخدم الساعة المائية في سولين، وهي ساعة ذات جزئين منفصلين بشكل عموديٍّ، ومتصلين بعمودين رفيعين عن اليمين والشمال يمسانهاً من الخارج؛ الجزء الأول كان إناء مخروطيًا ذا ثقب دقيق في رأسه بالكاد يقتر الماء منه وكان رأس المخروط للأسفل، أمّا الجزءً الثاني فكان وعاءً مربَّع الشكل ذا مائة تدريج مرقّم، كل درجة كانت تُسمّى دقيقة، وكان اليوم مقسّمٌ إلى إثنتي عشرة ساعة، وكلُّ ساعة مقسمة إلى مائة دقيقة. كانت الساعة تعادل الوقت الذي يمتلئ فيه الإناء المربع عن آخره فيتم تفريغه يدويًا في الإناء المخروطي الذي كان مملوءً في بداية الساعة، وهكذا.

أمّا الساعة الشمعية فكانت ذات أربعين تدريجًا مرسومًا على زجاجة طويلة موضوعة بشكل عموديٍّ على مستوى الأرض، وتحوي شمعة، وكان الوقت يحدد بالدّرجة التي كانت تقف عندها الشمعة، وبانتهاء ذوبان الشمعة، تنتهي الساعة فتوضع شمعة أخرى، وهكذا. كان نظام الساعتين متوافقًا في عدد الساعات التي يُقَسَّم إليها اليوم، ويختلفان في عدد الدقائق التي تحويها الساعة؛ أمّا أوستين، فقد أخبرني أبي أنَّ أهلها كانوا يستخدمون الظل لحساب الوقت فيها يُسمَّى بالساعة الشمسية.

– أحسنتما أيها الفتييان. حَسَنٌ، يا قاسم... ستعمل عندي من شروق الشمس إلى غروبها، ويمكنك المبيت في الحانوت إن أردت، كما يفعل بعض الفتيان، وستنال على عملك عشرين درهمًا يوميًا.

عشرين درهمًا! كان هذا قليلًا على هذه الأعمال وهذا الوقت الطويل،

ولكنّه كان مبلغًا جيدًا للعيش ولأعيل مُسِنَّيَّ.

– شكرًا لك -يا سيدي- على كرمك.

– تعال معي أيها الجديد، سأعرفك على باقي الفتية. هذا...

سعيد: كان فتى قصير القامة، عريض المنكبين، ذا شامة سوداء فوق شفته العليا، اسمر اللون، أسود الشعر، بعينينن بنيَّتين داكنتين، وكان كثير الفكاهة، قليل الاحتشام؛ كان هو المسؤول عن رعاية خيل صالح تاجر السجاد.

خالد: كان قوي الجسم، قوي البنية، يشبه سعيد إلا أنّه كان أبيضًا، وهو المسؤول عن نقل البضائع.

مؤمن: لا يختلف كثيرًا عن البقية إلا في ضعف جسده، ولكن يبدوا عليه الدهاء، وكان المسؤول عن بيع السجاد في الحانوت، فتاجر السجاد صالح يجلس على كرسيه كمَلِكٍ يُحرك فتيانه لخدمته.

– وهذا الإمام سُهيل.

قالها سامي بلؤم واضح، فضَحِك الآخرون على فكاهته السمجة، فتبسم قاسم مجاَملةً، وموافقة للجماعة، ولكنَّه أحس بحقارة فعله حين نظر في عيني سُهَيل.

كان سُهيلُ فتىً بنّيَّ البشرةِ، هادئ الطباع، رفيع العود، طويلًا كالنخل، أجعد الشعر أسوده كسواد عينيه اللتين بهما مسحة من الحزن مع دفئ عظيم يكفي لينسيك برد الشتاء، ويظهر عليه الطهر والنقاء

والتواضع وخشية الله. كان هو القائم على خزينة أموال صالح، فهو أمين وصالح لا يخوِّنه.

***

– لكن كيف استوسمت فيه خشية الله يا إمام من أوَّل وهلة؟

– إنَّ الذين يَخشّوْن الله -يا أخي الكريم- يَسجدون، وللسجود أثر يتركه في وجوه الساجدين بادٍ للعيان والناظرين؛ (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ).

– أتقصد ذاك الأثر الأسود الناتج من احتكاك الجبين بالأرض، يا إمام؟

– كلا، بل أثر الخسوع والخضوع لله والتواضع؛ فلا تجد التكبر في وجوههم، وتجد وجوههم فيها ضياء بدون نور يجذب القلوب إليه؛ وهم فوق ذلك علماء وعليهم هيبة العلماء ووقارهم؛ ألم تسمع قول الله تبارك وتعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ).

***

أكمل سامي تقديم الفتيان لقاسم بتقديم نفسه...

– وأنا سامي...كبير فتيان تاجر السجاد صالح، وجميعنا أترابٌ وأقران.

– ما رأيك في أن نأخذك معنا في جولة في المدينة، فأنت لا تأتيها إلا

للتجارة في السوق؟

- أنصحك ألا تذهب معهم.

قالها سُهَيلُ وهو يمشي خارج الغرفة، فضحكوا منه قائلين:

- ماذا يا إمام؟ هل تريد ان تأخذه معك إلى المسجد أم ماذا؟

لم يأبه قاسم لقول سُهَيل، فهو على تواضعه وهدوئه، لا يبدو له أنه الصديق المثالي الذي سيجعله ينخرط في أجواء المدينة ويختلط بأهلها.

ذهب قاسم معهم للتجولِ بعد غروب الشمس في ضروب المدينة وساحاتها؛ ولأول مرّة منذ تعلَّم الصلاة، فوّت عليه صلاة المغرب في جماعة لِما رآه من تهكم منهم بسُهَيل، فخاف أن يخبرهم أنه سيذهب للصلاةَ فيفقد ودَّهم سًريعًا؛ ولأول مرة أيضًا رأى جمال مدينة الحكمة، وأناسها عن قرب في غير سوقها.

كان الشباب يقفون على نواصي الطريق يتسامرون، وكانت النساء في الطرق تنزل ليلًا ليتمايلن تماليل البعير ويخضعن بالقول ليُغْرينَ الذي في قلبه مرض، وكلّما مرّت امرأة، كان يلحظ أعيُن الشباب علىَ الناصية أو الفتية الذين معه تلتهم ما أظهرت لهم من زينة ومفاتن تصرخ بأعلى صوتها أن هيتَ لكم؛ وكانت الخمر في كلّ مكان، فإذا نظرت في الطرقات، تجد الشباب يمسكونها في عربدة ومجون، وإذا نظرت في بيوت الأغنياء، تجدها لا تخلوا منها، وإذا انسال بصرك إلى ضواحي وأحياء المدينة، تجد الخمّارات في كل شارع وزاوية. وكانوا السكارى

يمشون بزجاجات الخمر متغنِّين بقول الشاعر -وبئس القول هو:

دع المساجد للعبادِ تسكنها، وطف بنا حول خمَّار ليسقينا

ما قال رَبُّك ويلٌ للذين سكروا، ولكن قال ويلٌ للمصلينَ

- ها قد بدأ المرح! سنريك كيف يقضي المرء ليله في مدينة الحكمة.

دلفوا إلى أحد الخمارات، وبرفقتهم قاسم وهو مسطك الأسنان ومرتعد القلب؛ لم يعتد على فعل الذنوب وترك الصلوات، ولكنّ الشيطان أغواه، وإخوانهم يمدونهم في الغي ثمّ لا يُقصِرون.

- ماذا ستطلب؟

- أحمق كعادتك يا سعيد...هذه المرة الأولى التي يشرب فيها؛ ألا يبدو لك توتره وكثرة تلفته؟

- ما دام الأمر كذلك فسأختار لك شيئًا تبدأ به طريق متعتك في الشرب أيها المبتدئ.

جاء لهم الساقي بمشروب أصفر غريب ذي زَبَد كثيف في أكواب ضخمة، وقال الفتية لقاسم بصوت يشبه حفيف الأفعى:

- سينعم عقلك بليلة لم يذق مثلها قط.

نظر قاسم إلى الكوب نظرة تردد الصالح قديمًا المقبل على الذنب حديثًا، ولكنّه تجرأ لمَّا رآهم يضحكون ويأزونه إلى الشرب أزًا، فشرب رشفة، ثم اثنتين، ثم أنهى كوبه، ومن ثمّ طلب آخر، وآخر حتى ثمل،

وصدَّعَ ونُزِف.

حمله الفتيان معهم في طريق عودتهم إلى حانوت السجاد ليبيتوا ليلتهم، وقاسم قد بات وربُّه عليه غضبان، فقد خالف أمر ربّه، وخالف وصية والده، وأتى أمّ الخبائث، وأسرف. رحم الله أبي لو كان حيًا ساعتها لمات كمدًا مرة أخرى...أين الولد الصالح الذي انتظرَ أن يدعو له؟

في صباح اليوم التالي، استيقظ قاسم على أذان الفجر كعادته -والطبع يغلب التطبع- وقام ليصلي الفجر ويتوب لربّه عن زلّته وغفلته بالأمس

- ربِّ ظلمت نفسي، وإن لم تغفر لي وترحمني، لأكوننّ من الخاسرين.

وعزم قاسم هذه الليلة على أن يعود لبيته في مساكن المهاجرين بعد غروب الشمس مباشرةً لألى يقضي ليلة سيئةً كهذه، وإن كانت في نظر شهوته وعقله هي أفضل ليلة مرت به. كان تصريح العمل الذي أعطاه إياه التاجر يخوِّله للخروج من المدينة بعد أن تغرب الشمس بنصف ساعة شمعية، أو أن يُقيم في دكانه فله حق التجول في المدينة والمكوث فيها كيفما شاء، ولكنه لا يستطيع الخروج منها بعد هذا الوقت.

- الله أكبر...الله أكبر...

هرع قاسم إلى الخروج من الحانوت ليعود لمنزله وليصلي المغرب كي لا يضيِّعه كما فعل بالأمس.

- إلى أين أنت ذاهب؟ ألن تأتيَ معنا الليلة؟

- لا...عليَّ أن أعود إلى منزلي الليلة، فلدي مسنّيْنِ لأهتم بهما...أنت تعلم المُسِنِّين.

قالها بضحكة مترددة ليفلت من ميعادهم، وليظهر لهم أنه معهم في صفهم: صف الشباب المتهكم الهمَّاز المشاء بنميم، وأنه لا يخالفهم في لؤمهم وأقوالهم وفعالهم، ولكنه نداء الحاجة وحسب ما سيجعله يتخلَّف عنهم.

في صباح اليوم التالي أصروا عليه أن يخرج معهم، فما استطاع أن يجد ما يحتجُّ به لهذه الليلة ليفلت منهم، ولقد أرادت نفسه أن تذوق نزوة الخمر مرة أخرى، ولكنه ذهب ليصلي المغرب في خلوة مع نفسه سريعًا، فنقرها نقر الديك لألا يتأخر عليهم، وقال لنفسه أنَّ صلاة العشاء ممتدة الوقت، (ولولا أنْ أشق على أمتي لأمرتهم بتأخير العشاء) -أو كما قال سيدي ﷺ- ويمكن أن يصليها لاحقًا.

- الليلة لن نشرب الخمر وفقط، بل سنذهب لنقضي بعض الوقت مع صاحباتنا.

- صاحباتكم؟

لقد كان الأمر غريبًا على قاسم الذي تربّى في كنف العلم والدين، ولم يعهد علاقة بين الرجل والمرأة إلا علاقة الرجل بزوجته.

جلس الفتية مع بعض الفتيات المتبرجات بزينة وعُري على طاولة واحدة في ناديهم: نادي المنكر الذي يشربون فيه خمرهم وهم يضحكون

ويسكرون، وقاسم كان يجلس مترددًا خجولًا كثير التعرق، إلى أن اندمج معهم في الحديث، ورضيت نفسه جلسة السوء هذه. تسامر مع إحدى الفتيات التي جاءت مع صديقاتها وليس لها رفيق، فأعجبه الأنس الذي وجده بمحادثة النساء، كما أعجبه جمالهن.

كان الزنى في المدينة أمرًا شائعًا، ومستساغًا، ما دام في السر، وبرضا الأطراف المعنية، وكانت المومسات تقف على رأس كل طريق تنتظر فاجرها أن يأتي ليستأجرها لليلة كما يُستَأجر البعير للسفر. ولإن سألتني عن كيف لمدينة تدين بالإسلام دينًا أن يكون فيها كل هذا الكم من القذر والرذيلة والخطيئة، لقلت لك: إنَّهم ارتضوا الحياة الدنيا لهم نعيمًا، ونسوا الله فنسيهم، واهتم الأهل ببطون أبنائهم، فلم يكن يشغلهم إلا أن يعملوا ليوفروا لهم طيِّب الطعام، وجميل الثياب، وأن يذيقوهم من النعيم الواسع، وأن يعلموهم علوم الدنيا دون علوم الآخرة.

لم يكن أحد من أهل المدينة يهتم بماله من أين اكتسبه: أمن حلال أم حرام، ما دام أنه مال يأتيه؛ فكانوا يطففون في الميزان، وإذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون، ونسوا أنهم مبعوثون ليوم عظيم، وجعلوا ربهم أهون الناظرينَ إليهم؛ وتعاملوا بالربا فلم يسلَم منه غني أو فقير.

لم يبرأ من تلك الجرائم ملك ولا خادم، فكان الملك معروفًا بأنه لا يبيت الليلة إلا مع زجاجة من الخمر، وامرأة باغية؛ وكان الخادم أقل رفاهية فيذهب إلى الخمارة ليشرب، وينتظر على الطرقات ليتربّص

بالنساء ويداعب عينيه بجمالهن الذي لم يسترنه بحجة أنّهن يشعرن بالحَرِّ، وأنَّهن أحرار ومن حقِّهن أن يضعن عن بعض أعضائهن الثياب كما الرجال يفعلون. وعندما ذكّرهم إمام لهم أن يتقوا يومًا يُرجعون فيه إلى الله ثمّ تُوَفّى كلّ نفس فيه ما كسبت وهم لا يُظلَمون، قالوا مقالة قوم لوط له -عليه السلام- أن: أخرجوه وأهله من قريتكم إنّهم أناسٌ يتطهرون؛ فطردوه منها واستمروا في طغيانهم يعمهون.

انغمس قاسم في الملذات معهم، فكان في النهار يتعامل بالربا لصاحب الحانوت؛ فيذهب ليأخذ مردود دينه من المديونين مضاعفًا بالربا، ويقول قولتهم إنَّما البيع مثل الربا -وأحلَّ الله البيعَ وحرَّم الربا- وبالليل يخرج لشرب الخمر مع فتيانه الأشقياء، ويتسامر مع نساء سلافع ليس فيهنَّ من الحياء شيء، لا في كلامهن ولا فعالهن، ولا يتسحيين من الرجال، فكُنَّ قبيحات وإن بدا للعيان غير ذلك؛ ولكنَّ الشهوة تسوِّل للنفس، وتجعل من الخمر المرِّ عسلًا، ومن المرأة المتبرجة الزانية متحررة.

استمر الأمر على هذا الحال لشهور، وفي ليلة من ليال السهر واللهو، كانت إحدى الفتيات اللاتي يتسامرن معهم قد شُغِفَت حُبًا بقاسم وجمال طلّته ووسامة وجهه -اللَّذيْن ورثهما عن أمه- وقوة بدنه -التي كانت كل ما تبقى له من أبيه، إلى جَانب نصائحه التي نسيها وضرب بها عرض الحائط- وأرادت أن توقعه بها؛ فأغوته ليلتها ليأتي معها إلى بيتها الذي كانت تقطنه وحدها، حتى إذا اختليا، وكان الشيطان ثالثهما،

واقشعر جسد قاسم، وسَرَت فيه الشهوة تحرق صدره وبطنه، وقالت له هيت لك، ثمّ اقتربت لتنال منه براثِمُها القذرة، فارتجف جسدي وارتعدتُّ كأنما نزلت عليَّ صاعقة أفزعتني فدفعتها عني، وفتحت الباب وركضت إلى الحانوت.

– معاذ الله، معاذ الله؛ لا إله إلا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين، لا إله إلا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين...

ربِّ إن عظُمَتْ ذنوبي كثرةً

فلقد علمتُ بأنَّ عفوكَ أعظمُ

رَبِّ إن كان لا يرجوكَ إلا محسنٌ

فبمن يلوذ ويستجير المجرمُ

أدعوك رَبِّ كما أمرت تضرعًا

فإن رددت يدي فمن ذا يرحمُ

ليس لي إليكَ وسيلةٌ إلا الرجا

وجميلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أنِّي مسلمُ

في صباح اليوم التالي استيقظت بعد صداع الخمر، وفزع تلك الليلة الغريبة؛ كنت قد نمت عن صلاة الفجر كعادتي بعد أن اعتدت السهر واللهو، ولكنّي نمت على بكاء مرير ونحيب طويل، وسجدة فقدت بعدها وعيي من أثر الخمر فسقطت على الأرض في نوم عميق.

– ماذا حدث بالأمس يا قاسم؟ لقد أخبرتني مريم أنّك هربت من بيتها، وأبيت أن تقربها. هل جننت يا رجل؟ إنها مريم حلم الرجال!

– أنقلع عنّي يا سامي، فوالله ما أصابني ما أصابني بالأمس من فزع إلا بما أوقعتموني فيه من زلل ومعاصي.

– هل أصبت بعدوى الطهارة من سُهَيل أم ماذا؟ أم أنّ الخمر قد لعبت بك كعادتها يا خفيف العقل؟ أم أنك تخاف أن تقع في مشكلة إذا زنيت؟ ألا تعلم أن صاحب هذا الحانوت نفسه زانٍ أثيم؟

– إليك عنّي، فوالله إنّك لغوي مبين.

–حسنًا...سأتركك قليلًا علّك تستفيق. اذهب إلى بيتك الليلة ولا تأتينا حتى تعود إلى رشدك.

تذكّرتُ سُهيلًا إذ ذكره سامي أمامي، فذهبتُ إليه أطلب عنده الرشاد.

"شاور في أمرك الذين يخشون الله، إنَّما يخشى اللهَ من عبادِه العلماءُ"

–عمر بن الخطاب

– السلام عليك يا سُهيل.

– وعليك السلام ورحمة الله وبركاته؛ مالي أراك متغير اللون يا قاسم؟ ماذا ألَمَّ بك؟

– أمرٌ عظيم يا سُهيل...أمرٌ عظيم. هل لي أن أجلس معك قليلًا؟

- إذن تعال معي لنصلي العصر، ثُمَّ أخبرني بما حدث.

دخلت المسجد في جنوبي غرب المدينة، وكانت هذه المرة الأولى التي أصلي بها في مسجد من مساجد المدينة، فقد كنت أصلي في المسجد خارجها، أو زاوية من الزوايا، فحتى المساجد هنا ليست إلا لأهل المدينة، لذلك بنوا لنا مسجدًا خارجها...يال الطبقية الحقيرة في هذه المجتمعاتّ!

لم يكن في المدينة -على كبرها- إلا أربع مساجد فقط في زوايها الأربع. كان المسجد فارغًا على غير ما اعتدته في سولين كأنّما ليس في المدينة إلا ثمانية رهطٍ وإمامهم. صلّيت مع سُهيل وأخذت اتضرع في سجودي لإلهيَ العظيم أن ينجيَني مما وقعت فيه، ومن غفلتي.

- هل لي من توبة يا سُهيل؟

- (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).

- ولكنِّي ضيَعت الصلاة، وشربت الخمر، وخالطت النساء، وكدت أن أقع بإحداهن.

- (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)، (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا).

- أفأفعل ما أشاء ويُغفَرُ لي؟

– (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)، (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُّ فِي جَنبِ اللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ).

أخذت أبكي بشدة وحُرقة، ولم أجد غير البكاء والمزيد منه، وبقيت على هذه الحال في المسجد، حتى أدركني أذان المغرب، فقمت للصلاة.

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).

قرأها الإمام بصوتٍ نَديٍّ شجيٍّ هزَّ قلبي، ولم يزدني إلا بكاءً على بكائي.

– يا الله، يا غفَّار الذنوب، يا من تتوب علينا لنتوب، وتقبل توبة من يتوب، يا محب العفو، يا كريم يا ودود، أقبلني يا ربِّ، ولا تردّني إلى معصيتك. (رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ)، ربِّ اصرف عني شرَّ هذه المدينة، وإلا تصرف عنِّي شرَّها، أَزِلُّ وأَضل وأكن من الخاسرين.

فاستجاب له ربُّه فصرف عنه شرّها إنّه هو السميع العليم.

***

الفصل السادس:
أين المُستَقَرّ

الطريق بين مدينة الحكمة وكارمينيا - ربيع عامِ ١٤١٥ ميلاديًا / ٨١٧ هجريًا:

- فليتَ الذي بيني وبينَك عامرٌ...وبيني وبين العالَمينَ عمارُ.

- من أين أنت؟

- أُخِذْتُ من مدينة الحكمة.

- لكن لكنتك لا تدلُّ على أنّك من أهلها!

- أنا مهاجر.

- يبدوا أن ورائك حكاية؛ ولكنَّ صوتك متهدج يشوبه الإنهاك والتعب! هاك بعض الماء، اكتنزته خلسة من البئر بجانب الشجرة.

- بسم الله...الحمد لله.

- الآن أخبرني حكايتك.

- إنّي...رجلٌ من سولين...

بعد أنْ استفقت من سكرة المعاصي والشهوات، وعدت إلى رشدي

-إلى صلاتي، وذكر ربي- أبيت إلا أن أبصِّرَ هؤلاء المغماة عيونهم؛ فإن المبصر إذا رأى العميان ورأى جميل منظر القمر الذي فتنه بجميل طلته وبريق وهجه، أبى إلا أنْ يبصِّرهم النور ولو بعينيه. كان سُهيل من الصالحين القلائل في مدينة الحكمة؛ كان قد حاول أن ينصح أصدقائه والمقربين منه في المدينة أن يتقوا الله، ويكفُّوا عن قبيح فِعالِهم، فهم مسلمون، وأجدر بهم ألا يفعلوا ما يفعلون من جرم مشهود، وتعدٍّ للحدود؛ فمال عنه من ظنَّ أنهم منه مقربون، وهدّدوه بأن يخرجوه كما أخرجوا إمامهم الذي صدّع رؤوسهم بنصحه، وألّب عليهم ضمائرهم بطهره؛ فسكت سُهيل وآثرَ العافية، واتخذ سبيله في وحل ذنوبهم بطاعته...عجبًا! يعبد الله، ويخشاه، ومن حوله لا يتورّعون، ولا يتضرعون؛ يسير في الطريق على قلة سالكيه.

وما أضعف من همة سُهيل في الاستمرار في نصحهم هو أنه لم يكن له عضدٌ به يشتد، ولا ساعد به يتأزَّر، ولاركن شديد إليه يركن. أمّا الآن وقد صرتُ صاحبه، ووزيره، وتلميذًا عنده في مذهب الطهارة، فقد وجد من يثبِّته ويحفزه على الاستمرار في الطريق، وأن يضرب بالحائط حقيقة أن قليلٌ هم سالِكوه؛ ولكنّه تردد بعض الشيء أن يدخلني في دوامة من الجدال والسجال مع قوم أرذالٍ أنذال.

– ألن تأتي اليوم يا قاسم وتعود إلى سابق عهدك؟ لقد كنت بطلًا في شُرب الخمر، وأشد على النساء إغواءً بوسامتك من الذهب والحُلي. دعك من هذا المتخلف الذي يعيش في زمن الغابرين، ويقوم ويقعد،

ولا ينال إلا التعب وتضييع الوقت والتوبيخ من تاجر السجاد لتأخره عن العمل بسبب صلاته.

– أتهزأون برجل أن يقول ربِّي الله، ويفعل أمره، ويصلي فرضه، ويحفظ فرجه؟ أتهزأًون بمن ينصحكم ويدعوكم إلى رؤية النور، وأنتم عنه معرضون، وتضعون أيديكم في آذانكم، وتغطون عيونكم أن لا تروا ذاك النور المبين، وتضربون بكلامه عرض الحائط؟ إنّكم لقومٌ مسرفون، وعن طُرق الهداية بعيدون؛ ولكن كذلك كنتُ من قبل، فمنَّ الله عليَّ. كنتُ فيما أنتم فيه من الضلال، فسأنصح لكم عسى أن يشاء ربِّي لكم هداية، قبل أن تحلَّ بكم النِّهاية، ولا ينفع عندها الندم.

– إذن ستعود يا سُهيل لسابق عهدك في تمغيص ليالينا، وسيشاركك صديقك الجديد قاسم؟

– لقد أنكرت عليكم فعلكم فيما سبق، ولكنّي رأيت أن أعتزلكم ويكون لي ديني من تقوى الله وخشيته، وأنأى بنفسي من جُرمكم، ويكون لكم دينكم من الهوى...تفعلون ما تشتهون؛ لا تؤذونني ولا أؤذيكم، ولكنّ قاسم قال لي معذرةً إلى ربِّكم، ولعلَّهم يهتدون.

– إذًا انقلعوا عن وجوهنا الآن حتى ننهي عملنا، وفي الليل إنّا منكم سنسخر، ولأجسادكم الطاهرة التي نشمأز منها سنركل ونوسعها ضربًا.

لم يُثننا هذا التهديد والوعيد.

(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ).

لم يكن الأمر لديّ، أن أنصح هؤلاء الفتية وحسب، بل أردت أن أشمل المدينة كلّها بالنصح، ولكنّي اخترت هؤلاء الفتيان كبادية عملاً بقول الله -تبارك وتعالى: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ). دعوتُ وسُهيلُ الفتية ليلًا ونهارًا، فلم يزدهم دعائنا إلا فِرارًا. وكنّا إذا قلنا لهم: تعالو معنا إلى الصلاة، اتخذوها لهوًا ولعبًا، وقالوا لنا ادعوا لنا أنْ يهدينا الله، وانفجروا بالضحك والسخرية، وإذا تورّعوا فكانوا يكتفون بالابتسام فقط.

في إحدى المرات، جاء سامي والخمر تهذي بعقله، وقد وقع بوقعة سوء بادية على وجهه، فزجرناه وحاولنا إفاقته، فلم يزدد بنا إلا نكايَة، ولم نجد منه إلا السباب والشتائم، ثُمّ اتبعهما بسلسلة من اللّكمات والضربات على سُهيل صرعته أرضًا، ولكنَّه لم يستطع أن يصيبني بما أصاب سُهيل، إذ كانت موازين القوى وقتها في صالحي، ولكن عندما وصل باقي الفتية، تكاثروا عليَّ فلقيت ما لقيهُ سُهيل.

استمررنا على دعواهم، واستمروا على أذاهم حتى استيأسنا منهم، فخرجنا إلى باقي أهل القرية داعين.

لم نكن الصاحَين الوحيدَين في المدينة، فقد كان هناك آخرون، ولكنّهم كالحزب الثالث في أصحاب السبت، وفي أوستين يقولون: (لِمَ

تَعظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا)، فآثروا السكوت وأن يغلقوا أبوابهم.

ظننا أنّنا إذا خرجنا داعين في وسط المدينة، فإنّ هؤلاء الساكتين عن الحق سيتشجَّعون ويكونون لنا خيرَ عون، ولكنّهم نبذونا أنّا نضيع وقتنا، ونؤذي أنفسنا، وحذَّرونا من أن نستمر في فعلنا كي لا نؤلب عليهم أهل القرية الفاسقين، من سكان ومَلِك وحَرَس قد ارتضوا أن يكون كلٌّ في حاله، ما دام أنّ أحدًا لن يزعج الآخر بنصائحه؛ فوجدنا من الصالحين الساكتين عن الحقِّ عِداءً غير ما وجدناه من المجرمين. ما لهم كيف يحكمون؟ أفلا يعقل هؤلاء الساكتون؟ قد كان الواحد منهم إذا مرّ على جماعة من معتنقي الجلوس في الطرقات، الذين لا يحفظون له حقًا، يتغامزون، ومنهم يسخرون، ويضحكون، وكانوا فكاهتهم مع أهلهم إذا انقلبوا إليهم، وكانوا يقولون: إنّ هؤلاء لضالون عن حقيقة دنياهم؛ ألم يعلموا أن الحياة متع؟ فما لهم عنها معرضون؟ ولأنفسهم مجهدون؟ ولأوقاتهم في الصلاة مهدرون؟

وما أرسلوا عليهم حافظين.

زجرنا أهل المدينة المسرفين عن هذا الفعل القبيح، والتلامز والتنابز بالألقاب، وقلنا لهم: اتقوا يومًا يُثَوَّبُ فيه الكفار ما كانوا يفعلون، يومٌ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، واتقوا الله ولا تكونوا كالأنعام...بل أضل، فتطلقوا عنان شهواتكم من عِقَالِ عقولكم، وأحكام ربِّكم، واتقوا الذي خلقكم والجبِلَّة الأولين.

ما بال هؤلاء فَرِحين؟ هل يظنون الدنيا لهم باقية؟ لو كانت كذلك لما وصلتهم، ولبقيَت لمن قبلهم؛ أم هل يظنون أنفسهم غير مسؤولين أو مبعوثين ليوم عظيم: يوم يقوم الناس لربِّ العالَمين؟ أم يحسبون أنهم خُلقوا عبثًا وأنَّهم إلى ربِّهم لا يرجعون؟ أم سوَّلت لهم نفوسهم أنَّهم خُلقوا من غير شيءٍ، أو أنَّهم هم الخالقون؟ أم كان بهم شكٌّ من دينهم ونصرة ربِّهم فتركوه لِمَا ظنوا أنه أنفع لهم؟ أم شقّ عليهم أمر العبادة، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم؟

لم نجد من القوم إلا إعراضًا شديدًا، وتولٍّ عن الحق غريبًا، وعنادًا ومكابرة. وما زاد الطين بلّة أنهم صبوا عِدائهم أيضًا على باقي الصالحين الذين كانوا صامتين، فإذَا ألفوهم في الطَرقات أذاقوهم ألوان السخرية -أكثر مما كانوا يفعلون بهم- والضرب والإيلام، حتى أعلن الساكتون عن الحقّ أنهم سيقاطعوننا أنا وسُهيل بأن يحرمونا تجاراتهم، والعمل عندهم، والمصاهرة لهم، وأي علاقة أو وِصال معهم.

لم يثننا تخاذلهم، ولم يخب عزمنا؛ فاستمرينا على عنادنا ناصحين، واستمروا على عنادهم مستكَبرين، حتى شق علينا الأمر، وآيسنا منهم صلاحًا، وقنطنا من أن يكون لدعوانا فيهم فلاحًا، فاعتكفنا على عبادتنا في المساجد، ولم نكن نخرج إلا للعمل في حانوت السجاجيد.

يبدوا أنَّا قد يأسنا منهم رشدًا كما فعل الساكتون عن الحق قبلنا، ولكننا استمررنا في نصح من وجدنا منه لين العريكة، وأذنًا واعية؛ أمَّا الأشرار فما عاد لنا بهم حاجة، فضربنا بيننا وبينهم بسور التجاهل

والتغافل والتغابي، ولعل الله أن يُحدِثّ بعد ذلك أمرًا.

– هذا الفتى قاسم قد نغّص علينا ليلنا ونهارنا، وأنْ أراه هكذا يتخلص من شرب الخمر، وهي التي قيدتنا كبعير مُعَقَّلَة، وأن يرفض الوقوع بمن لا يُرفَض لها بيننا طلب، ولا يظفر بها إلا الخاصة وعِلية القوم، إنّه لأمر يعظم على نفسي تحمله.

– لا بدّ أن لديه مشكلة في رجولته ليرفضها.

– إذن فلماذا كفّ عن شرب الخمر بعد أن أصبح لها عاشقًا، ورضع من سِقائها ستة أشهر. لقد توقف عن شربها منذ ما يقارب السنة والنصف حتى الآن.

– إذًا فهو أحمق قد تخلى عن متع الحياة لِوَهْمٍ وعده به سُهيل عن حياة آخرة وجنَّة.

– أرى أن ننهي أمر سُهيل لعلّ قاسم يستفيق من سحره ويعود إلى رشده وسابق عهده.

– طائشٌ كعادتك يا سعيد. إن فعلنا، فإنّنا سنحرك بذلك مشاعر الوفاء عنده، وربما الانتقام أيضًا، وربما يفتك بأحدنا على غفلة منَّا، وأنتم تعلمون أنه قويٌّ قادر.

– إذن نقتل كليهما؟

– إذًا حرب بين المهاجرين وأهل المدينة.

– فماذا ترى يا سامي؟

– أرى أن ندبِّر له مكيدة، ونوقعه في جريمة لم يأثمها، وعلى إثرها يُعاقب بالنفي من الأرض، ولكن لن يُنفى عزيزًا كالإمام الذي نُفيَ، بل سننفيه عبدًا ذليلًا نبيعه للقرية المجاورة في الجنوب، وهي معروفة بتجارة العبيد، نستريح منه، ونرسل معه سُهيلًا كي يؤنس رِقَّه.

ضحك سامي وهو يختتم رأيه في الكيد والمكر، ووافقه أصحابه الرأي والضحك، (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ).

– أيها الزاني!

التفتُّ للمنادي، ليس لانطباق الجريمة عليَّ، فوالله ما فككت إزاري على حرام قطّ، ولكن لمعرفتي بصوت المنادي الذي ألفته طوال فترة عملي في الحانوت.

– لم لا تجيب أيها الزاني؟ ألم يخبرك يا سُهيل ما فعله قاسم مع ابنة عمّك الجميلة مريم؟

– ما فعلتُ من شيء أيها الكاذب، لقد نفرتُ عنها قبل أن تَزِلَّ قدمي.

– حسنًا...إن كنت لا تصدقني...أخبريه يا مريم.

– أجل يا سُهيل، إنه لكاذب أثيم، لقد استدرجني بحجة أنه لا يريد تركي أذهب إلى بيتي وحيدة في ظلمات الليل، ثم وثب عليّ، وأصابني في عِفَّتي.

- كَذَبتِ! كل ما حدث هو عكس ما قلتِ؛ ونجاني الله منك قبل أنْ تزل قدمي في نار الشهوة؛ ولا تتحدثي عن العفة، فما علمت عنك أنّ فيك من السيدة مريم بنة عمران إلا اسمها.

- إن كنت لم تصدق يا سُهيل، فإنّ أباها -تاجر السجاد: صالح- قد صدّق. ولقد أخبرته بما فعلته يا قاسم؛ وإنّ هذا الرجل، وإن كان زانيًا أثيمًا، إلا أنّه لا يرضى أن تزني ابنته مع حقير فقير مثلِك من ابناء المهاجرين. أيامك في مدينة الحكمة صارت معدودة يا قاسم. وأنت يا سُهيل ستلحقه، فلقد أعلمتُ صالحًا أنّك شريك لقاسم في الجريمة؛ وكان ليشك في قولِي، ويُفتَضحَ أمري لولا أنكما تلازمان بعضكما كثيرًا هذه الأيام كفتًا وظلّه.

- أيها ال...

- هل ستسبني أيها الإمام قاسم؟

- اهدأ يا قاسم. اسمع يا سامي، إنَّا بُرَءاء مما تقول أنت وهذه الفاجِرة المدعية، وإنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين، وما نحن بخائنين، وإنّ الله لا يهدي من هو مُسرفٌ كذَّاب، وإنَّكم لكاذبون، فسنصبر حتى يحكم الله بيننا وهو خيرُ الحاَكمين.

كان سُهيل -وإن كنتُ أكثر جرأة واندفاعًا منه- أكثر علمًا وحلمًا وحكمةً منّي، فأثار غيظهم هدوءه، وأرعبت قلوبهم مقالته أنَّ الله خير الحافظين، وأنزلت عليَّ سكينة واطمئنانًا.

لم يطل الأمر كثيرًا حتى جاءنا التاجرُ صالح -وما هو بصالح- ليلًا ونحن نائمون في حانوته -كعادتنا- ليقيدنا هو وفتيانه غدرًا بعد أن أتهمنا عند قاض المدينة بالخيانة، وما كان منه إلا أن صدّقه، وأقرَّ له بما يريد من حُكم، بدَون أن يسمع منّي أنا وسُهيل حتى، فهو تاجر السجاد الأغني في المدينة، ناهيك عن أنه من المدينة، وأنا من المهاجرين، وسُهيل من فقراء المدينة ومَكرُوهيها، وإن كان ابن أخ صالح؛ وإذا رشيت القاضي والحراس، فيمكنك تنفيذ الحُكم الذي تريد.

أُخِذنا مكمَّمِي الأفواه، مغمَّي الأعين إلى قرية العزِّة والتي كانت تقع بجوار مدينة الحكمة. كانت قريةً معروفة باعتمادها على الإغارة على القرى الضعيفة المجاورة، وسبي النساء والأطفال وبيعهم لممالك أخرى قوية عبيدًا أذلاء مغتربين عن قراهم وأهليهم؛ وقبل أن يبيعونا هناك، أوسعونا ضربًا وسِبَابًا كتذكار منهم لنا.

– اسمع...هذا الفتى الفتيّ أوستيني الأصل، وولد في سولين، وأمُّه شامية. أريدك أن تذهب به بعيدًا عن مدينة الحكمة، فخذه خارج بلاد العرب حتى نضمن ألا يكون له أهل أو صاحب في مكان ما، وحتى لا يعود بطريقة أو بأخرى.

– حسنًا...سآخذه إلى اللاعودة.

– أمّا الآخر فبعه حيث شئت فلا أحد يكترث له، فلا تبذل عليه كثيرًا من الجهد.

– سيكون.

- والآن...الذهب.

- هاك ما يشبع بطنك وفرجك، يا صالح.

لقد كان كلُّ شيءٍ مُظلِمًا من حولنا، فهم لم يرفعوا عن أعيننا غطائها، ولم يكن لنا سوى آذننا تحدّثنا عمّا حولنا. ولم يكتفوا بأن حرموا أعيننا الضوء، بل زادونا ألمًا، فجوّعوا بطوننا، وأذاقونا الظمأ، وأشبعونا الجَلْدَ والهوان.

إنّه لأمر قاس أن تتحول من ابن أكبر تاجر للسمك في جزيرة المهاجرين بسولّين، وعندك من ألوان الطعام والشراب ما عندك، وحولك الأهل والأحباب، إلى عبدٍ موضوع في قفص ومقيّدٍ بالأغلال، ومكبّلٍ بالسلاسل في يديه وقدميه، ويُضرَب ضَربَ البهائم، وأهله قد واراهمُ التراب، ولا يجد ما يسد جوعه، أو يروي ظمأه.

أن تأخذ كرامة المرء التي هي أحد أغلى ما يملك، بل هي الأغلى بعد دينه، لهو أمر عظيم؛ ولكنّ ما نلاقيه من عنت وذلٍّ وهوان الآن لهو أهون من أن يُفسَدَ علينا ديننا، فالحمد لله الذي لم يجعل مصيبتنا في ديننا.

- انظر إلى الوجه المشرق يا قاسم، لقد صُرِفَ عنَّا شر هذه المدينة الفاسدة.

- أعلمُ يا سُهَيل، ولكنِّي لم أكن أتمنى أن يُصرَفَ عنِّي بأن أصير عبدًا، يُضرب ويُهان، ولست أدري إلى أين يسير بي الركب، أو أين يكون المستقر.

– أصبر يا قاسم، عسى الله أن يريد بك خيرًا فيُجهِّزَك له، وييسره لك، (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

– سُهيل!

– نعم يا أخا الإسلام، وصاحب السجن؟

– أوصني؛ فإنِّي لا أدري أين تتفرق بنا السُبُل.

– أوصيك بتقوى الله، والسير على نهج رسول الله – ﷺ – واعلم أنَّه ما تقرب العبد إلى ربِّه بشيء أحبَّ إليه مما افترضه عليه، ولا يزال العبد يتقرَّبُ إلى ربِّه بالنوافل حتى يُحبَّه.

– زِدني.

– أوصيك بأن تستحي من اللهِ حقَّ الحياء.

– وكيف يكون هذا؟

– أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبِلى؛ فإن فعلت، ذلك فقد استحييت من الله حقَّ الحياء. يا قاسم استحِ من الله كما تستحي من الرجل الصالِح من قومك؛ استحي أن يراكَ تفعل سوءً يشينك أمامه؛ ولا تجعل الله أهون الناظرين إليك. إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: (إن لم تستحِ، فاصنع ماشئت).

– زِدني.

– كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل، أو رجلٌ استظلَّ بظلِّ

شجرة، ثُمّ قام فتركها. ولا تترك إليك للحزن سبيلًا؛ فإنّ الشيطان يريد أن يَحزُن الذين آمنوا، فيقودهم إلى المعاصي، وإن الحزن ليوهن القلب، ويُضعِف الإرادة. يا رفيق الدرب...إنّ المعاصي شؤم وهَمٌّ في النفس، وضيق في الصدر، وما جعلَ اللهُ شفائنا فيما حرَّم علينا، فلا تبحث عن سعادتك في معصيته، ولا عن أُنسك بغيره، واعلم أنَّ الشيطان يَعِدُنَا الفقر ويأمرنا بالفحشاء، والله يَعِدُنَا مغفرة منه وفضلًا، والله واسع عليم. اختر أصدقائك بحرص، فلا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ. يا أخ العرب...إنّ الحكمة لهي ضالة المؤمن، فحيثما وجدها فهو أولى بها، فاستمع إلى القول، واتَّبِع أحسنه، واعلم أنّه ما من أحد على قلة علمه وكثرة جهله إلا وعنده شيء ليعلمك إياه، فانتقي من الناس حَسَنَهُم، ودع عنك شرَّهم. يا قاسم إنّه من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا وما يذَّكَّرُ إلا أُلو الألباب؛ فاسأل الله الحكمة بصدق، وإذا صدقت الله صَدَقك، وكن من أولي الألبا العاقلين، وسر على طريق الله المستقيم، ولا تتبع السُبُلَ فتفرَّقَ بك عن سبيله، فتكون من الخاسرين. يا صديقي...إنّ الله عند ظنِّ عبده به، فأحسن الظن به -سبحانه وتعالى- واتقي الله في سرِّكَ وعلانيتك. احفظ الله في الرخاء، يحفظك في الشِدَّة، واعلم أنَّ الله خيرٌ حافظًا وهو أرحمُ الراحمين. يا صاحب السجن... لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وكلَّ يوم لا تعصي الله فيه، فهو لك عيد، واشكر اللهَ يزدك، واسغفره يغفر لكً، واستعن به يُعنك، وكن من الصابرين، فإنَّ الله مع الصابرين ويحبُّهم، وإنَّ الله لا يُضيع أجر المحسنين. إلى الله المُشتكى، وإليه المنقلب، له الحمد على ما قضى، ومنّا

الصبر على ما أراد، وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم الصير، استودعك الإلهَ العظيم، وهو خير الحافظين.

سار بنا تاجر العبيد وأدلج. عشرون رجلًا وامرأةً مقيدون بالسلاسل أُخِذُوا ليباعوا ويشتروا كما تباع البهائم في الأسواق. عشرون إنسانًا نُزِعت منهم حرِّيتهم، ويسيرون مجهولي المصير لا يدرون إلى أين المَستقر، وليس لهم من مفر ولا وَزَر؛ يغشاهم الهوان والذل، ويتخلل أجسادهم الضعف والجوعُ والعطشُ؛ لم يسقونا إلا قليلًا، ولم يطعمونا إلا لمامًا، فقد خافوا إنْ هم أطعمونا أن تقوى عليهم أجسادنا، فَنَفتَكَّ من أَسرنا، ونسترد ما أُخِذَ منا من حرِّيتنا؛ ولكنَّ الله يقلب الأمور كيفما شاء، وما ربُّك بغافلٍ عما يعمل الظالمون، إنّما يُؤخِّرُهم ليومٍ تَشخَصُ فيه الأبصار.

ما أحقر هذه الدنيا! ليست النعم فيها جزاء للمحسنين، وليست الضراء فيها عقابًا للمسيئين، ولو كانت تُساوي عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرًا شربة ماء، ولكنَّها سجن المؤمن، وجنّة الكافر.

– توقفوا!

توقف الركب فجأة عند شجرة في الصحراء ذات ظلالٍ مُتفيِّئة، وفروع وارفة، وعندها بئر يسقي ويشرب منه الظاعنون في الصحراء.

– ستأخذان هؤلاء الخمسة وتبيعانهم في جزيرة المهاجرين في سولين، وأنتم ستأخذان هؤلاء العشرة وتجوبون بهم القرى في قلب الصحراء، وأنتما ستأتيان معي إلى كارمينيا لنبيع هؤلاء الخمسة.

كان الفراق بيننا أنا وسُهيل عند تلك الشجرة الشامخة في وسط الصحراء، كانت شجرةٍ وحيدة، بعيدة عن أخواتها كما سيصير الحال بالنسبة لي أنا وسُهيل. أَخِذَ سُهيل مع العشَرَة الذين سيُباعون في قرىً شتّى، أمَّا أنا فكنت ممن سيُأخَذون إلى كارمينيا.

كارمينيا: هي تلك المملكة التي حكى لي عنها أبي يومًا أنها قابعة خلف ذلك البحر المعروف ببحر الروم -والذي كانت سولين في وسطه- وأنها مملكة عظيمة معروفة بقوتها وضخامتها، وكنت أرى منهم أُناسًا شُقرًا بيضًا زُرق اللعيون وأخضرها في جزيرة التجار في سولين يدعوهم الناس ببني الأصفر، وكان يبدو عليهم الثراء ورغد العيش، ولكنَّ القيد سيظل قيدًا وإن كان من الذهب، ولست أدري من سيشتريني من بين أهلها، أشقيٌ أم سعيد؟ أتقيٌّ أم فاجرٍ؟ ولست أدري أي دين يدينون؟ وأي تقاليد يتّبعون؟ كان الأمر مجهولًا كما وجوه الأربعة البؤساء الذين أُخِذوا معي فيَ القيد في هذا السبيل المجهول.

تذكّرت قول ابن حنبل إذ دعى ربّه أن يحفظ القرآن ولكنَّه لم يقل اللهمّ اجعل ذلك لي وأنا في عافية، فأصيب بفتنة خلق القرآن، وحفظ القرآن، ولكن وهو في السجن. لقد دعوتُ الله أن يصرف عني شرّ تلك المدينة ولكنّي نسيت أن أسأل الله دوام العافية فلربما بذلك أصبت بما أصبت؛ وها أنا أسير أسيرًا في مسير غير يسير، إلى بلد لم أألفها، وفي حالة من الفقر والذل لم أعهدها. لربما هو تكفير لذنوبي الكثيرةٍ، أو تمحيص لنفسي وتزكية لها، أو تأهيل لعظيم قادم، لست أدري ما الحكمة من

وراء ما يحدث، وكيف لي أن أدري وسبحانه يعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسه، إنّه هو علَّام الغيوب.

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَائَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا).

إنَّ لله في خَلقِهِ شؤون، وهو العليم الحكيم، لطيفٌ لما يشاء، لا ينسى جزاء المحسنين (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)، (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)؛ فحفظ سبحانه كنز اليتيمين لصَلاحِ أبيهما، وأخذ طفلاً من أبويه -والكل عبادُه- ليحفظ عليهما دينهما، وأبدلهما خيرًا منه زكاةً وأقرب رُحمًا، وأمر عبدَهُ: الخَضر أن يخرق سفينة لمساكين -وهو ما بدا للعيان شرًا وشيئًا إمرًا- ولكنَّه كان درئًا للشر بشرٍّ أهون منه، فسبحان ذي العرش المجيد (فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ)، وسبحانه (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)، (فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

- ألستَ صابرًا يافتى؟

- وما لي لا أصبر والله يحب الصابرين؟

- إذًا فالله معك ولن يضيعك، واعلم أنَّ العاقبة للمتقين.

- يا صاحب السجن...ما اسمك؟

- حسَّان.

- أحسن الله إليك وإلينا، يا أخي. الحمد لله الذي أجرى هؤلاء الكلمات على لسانك ليُثبِّتَ بها فؤادي، وليُفرِغَ عليَّ بها صبرًا.

إنَّه لمن نِعَم الله العظيمة عليَّ -وكلها عظيمة ولا تُحصى، وكلها عليَّ مُسبغة- التثبيت على الحق، وردِّي إليه كلما شردت عنه؛ ولو لم يكن غيرها نعمة لكفت. إنَّ الله يُمهل من عباده من يشاء بحكمته ورحمته وفضله، ويهمل الذين نَسُوا اللهَ فأنساهم أنفسهم، فحقَّ عليهم قوله -تبارك وتعالى: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)؛ وإنَّ السيد إذا رأى غَنمةَ من غَنَمِهِ قد شَرَدت ، سلَّط عَليها كلبًا من كلابه حتى يردَّها إليه، حتى إذا عادت، كفَّهُ عنها؛ فهؤلاء الغاشمون الذين وضعوا القيد في أيدينا -ووالله ما استطاعوا أن يضعوه في نفوسنا- لَهُم كلاب الله في الأرض، سُلِّطوا علينا بذنوب لنا، وإنَّ كل شيء شقَّ على النفس من هَمٍّ أو وَصب أو نصب لَيُكَفِّرُ الله به عن المؤمن من ذنوبه، حتى الشوكة يُشاكها، فَلَكَم أنت رحيم يا ربِّ! وكم نحن عباد مقصرون!

إنَّ المحنة ليست دائمًا عقابًا أو تنبيهًا، فأحيانًا ما تحمل في رحمها منحة، وإنَّ الأنبياء لهم أكثر المتَحَنِينَ بالبلاء، ثُمّ الأمثل فالأمثل، ولعلَّ الله أنْ يأخُذني بهؤلاء الغاشمين إلى ما يغير مصير الأمم، ويكشف به الغُمَم،

(وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

***

الفصل السابع:
مملكة كارمينيا

ساحل بحر الروم - صيف عامِ ١٤١٧ ميلاديًا / ٨١٩ هجريًا:

- عدنا والتقينا من جديد، أيها البحر

وصلنا إلى شاطئ بحر الروم من ناحية بلاد العرب، حيث ركبنا البحر لنتخطاه إلى بلاد كارمينيا، التي لن أكون فيها إلا عبدًا يُباع ويُشترى. لم يهالني منظر البحر فأنا ابنه وفي وسطه ولدت، على عكس صاحبي حسَّان وباقي الأسرى، فقد أصابهم دوار البحر، وأخذوا يتقيَّأون وتمغصهم بطونهم طوال الرحلة، فهم لم يعتادوا على منظر أمواجه المتلاطمة التي تصيب بالدوار، ورائحة البحر التي يعشقها كل أهل سولين، وهي عندهم أطيب من ريح المسك.

يستغرق الأمر خمسين يومًا للوصول إلى كارمينيا من مدينة الحكمة، فاستهلكنا منهم ستةً وأربعين يومًا في الصحراء للوصول إلى شاطئ بحر الروم، وما كان سفرنا في البحر ليطول عن أربعة أيام في سفينة مستأجَرة، وقد كان هناك العديد من هذه السفن والتي كان أهلها من أهل المدن الساحلية، ولكن أشهر مؤجري السفن في هذا البحر هم أهل سولين، ولكنّها لمخاطرة كبيرة أن يعبروا بأسير من سولين بجوارها وفي

مركب أحد أهليها، فآثروا طريقًا أطول في البحر، واستأجار سفينة من مدينة أخرى، وهو ما استغرقنا يومين إضافيين من الإبحار للوصل إلى وجهتنا فتمَّت رحلتنا اثنين وخمسين ليلة.

كان بيع العبيد وسبايتهم أمرًا غير مباح في بلاد العرب، ولكن ما جعله يسيرًا هو تفرق ممالكها، والفساد الذيً انتشر فيها، فبرشوة بسيطة إلى صاحب السفينة، ستمر ببضاعتك من البشر المُستَعبدين وكأَنّ شيئًا لم يكن، ولن يشي بك أحد؛ وإلى من سيشي بك وبعض القرى تتخذ تجارة العبيد موردًا أساسيًا للرزق، كقرية العزة.

بعد هلاك جزيرتي الأعيان والجوهرة وتفكك الأسطول البحري لسولين، نشأت قراصنة في الجانب الغربي من بحر الروم من فرق مختلفة من الأسطول المتفكك، وكانوا ذوي سلاح فتّاك، وأعداد كبيرة، ولكنّهم متفرِّقون، والاتحاد قوة، والتفرق ضعف، وكل حزب بما لديهم فَرِحون. كان هذا الأسطول القاطع للطرق يطالبون العابرين بضريبة عبور مضنية - أكثر من تلك التي كانت تفرضها سولين على المارين بسواحلها- وإلا هجموا على سفنهم. كان الأمر في السابق خاضع لقوانين واضحة تنص عليها المملكة وترتضيها باقي الممالك والأمصار، أمَّا الآن، فصار الأمر أشبه بقاطعي الطرق في صحاري العرب.

إنّ مملكة كارمينيا لهي مملكة شديدة المِحال، مستقرة الأحوال، متحدة الصف، قوية الجانب، ذات جيش برّيٍّ جرار، وأسطولٍ بحريٍّ مغوار، وعلومٍ في كثير من المجالات، جعلتها رائدة العالم، وصاحبة السلطان؛

فلم يكن أحدٌ من أهليها يُسبى عبدًا أو أَمَةً، ولكنَّهم كانوا يستقبلون تجارة العبيد ما داموا هم الأسياد وأنَّ العبيد من غيرهم.

بعد أن علت كلمة الإسلام وصار المسلمون هم القوة الأولى في العالم، وهزموا الروم، وغزو بلاد الفرس، انكسرت شوكة الروم في بلاد العرب، وتفرقت بهم السبل، وكادت أن تشتعل بينهم الحروب، حتى استقروا على ما فيه السلامة للعباد والبلاد بأن تتقسم بلاد الروم إلى ثلاثة ممالك: إنجينيا في الشمال، سيدينيا في الغرب، وكارمينيا في الجنوب والشرق. وكانت كارمينيا أقوى الممالك الثلاثة، وأكثرهم نفوذًا وسلطانًا. لم يحل الأمر الموضوع حلًّا نهائيًا، فقد كانت هناك بعض المناوشات العسكرية التي تحدث بين الممالك الثلاثة.

(وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ).

ثُمَّ قامت كارمينيا بخطوة عسكرية قوية جعلت المملكتين الأخريتين تخشانها أشد الخشية، حتى أنَّهم ليخافون أن يتناوشوا معًا بالقرب من حدودها. لقد ابتكرت كارمينيا أسلحة جديدة جعلت منها قوة عسكرية لا يُجابهها إلا بلاد العرب إن اتحد أهلها، ولكن هيهات هيهات لذلك وهم بعيدون عمَّا وحدهم في الأولى -الإسلام- فكُتب عليهم أن يدخلوا في جاهلية ثانية، وأن يُرَدُّوا إلا ذيل الأمم كما كانوا قبل نور الإسلام.

كانت بلاد العرب من القوة البرية بمكان، وكانت جزر سولين

هي خط دفاعهم البحري، وثغرهم القوي، وجنديُّهم المطواع، ولكنَّ العرب والمسلمين كانوا قد أصيبوا بما حذَّر منه رسول الله - ﷺ - أصحابه إذ قال: (فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكنِّي أخشى أن تُبسَط عليكم الدنيا كما بُسِطَت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلِكَكُم كما أهلكَتهم)؛ فتنازعوا أمرهم بينهم في ملكهم، وظهرت فيهم حمية الجاهلية، وخاضوا حروبًا فرقتهم إلى ثلاث ممالك قوية تسيطر على منطقة العرب، وقرىً صغيرة في المنتصف، لا تُسمن ولا تغني من جوع، ولكنَّها تأتمر بأمرهم، وتنتهي بنهيهم، وتعمل بقولهم.

(وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ).

بضعف بلاد العرب وتفرقهم، صارت كارمينيا المسيطرة في البلاد، والمهيمنة على العباد؛ وبابتعاد أكثر المسلمين عن دينهم، صار بأسهم بينهم شديد، وقولهم بينهم بالسوط والحديد، وكلٌ على سلطانه مَريد؛ والذي يعاني دائمًا في وسط هذا الهرج والمرج هم المستضعفون من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا.

صار في الصحراء قُطَّاعُ طُرُق كُثُر، وانبعثت تجارة العبيد من قبرها، فصار ابناء العرب يُأسرون من قِبَل قطَّاع الطرق، أو بخيانة ممن ذويهم -كما تعرَّضت لواحدةٍ وضعتني في هذا القيد- أو بهجوم مملكة أو قرية على أخرى.

وكان أيضًا ممن تستباح أجسادهم لتكون في قيد العبودية هم

الأفارقة الذين ما أنفك عنهم قيد العبودية أبد الدهر منذ بدأ الإنسان هذه البدعة الشنيعة؛ كأنما هي جريمة أن تولد ببشرة سوداء، أو أنك بذلك أقل عقلًا وشرفًا فلا يجوز لك أن تكون إلا في قيد وتحت وصاية سيِّد. حتى جاء الإسلام يمنع أن يجور قومٌ على آخرين، وأن يُسبى إلا أسير حرب من الكافرين، وجعل عتق الرقبة كفارة وقربة له -سبحانه وتعالى- فبدًأت الأغلال تُرفع عن بني البشر عامة، وعن أهل أفريقيا خاصة، وظنُّوا أنَّهم قد وجدوا الخلاص، حتى نسى الناسٍ دينهم ثانية لعرض من الدنيا، فأنساهم الله أنفسهم، ووضع عليهم الذُل والهوان، ولا يًرفعه عنهم ربُّهم، حتى يعودوا إلى دينهم متبعين أمر ربِّهم وسنة نبيهم - ﷺ.

عطَّل وجود الأسطول البحري المنفك لسولين في مياه بحر الروم تجارة العبيد، والتي لم تكن شرعية لدرجة أن تحدث على مرأىً ومسمع من الجميع في جزيرة التجار -كعبة التجار ووجهتهم الأولى- فكان تجّارً العبيد يذهَبون إلى كارمينيا ليبيعوا بضاعتهم من العبيد العرب والهنود والأفارقة، حيث كانت كارمينيا أحد أكبر زبائن هؤلاء التجار سارقي الحريات.

إنَّ ما أزعج مملكة كارمينيا من أمر القراصنة في بحر الروم ليس أنهم سينازعونها فيه، أو سيُشكلون عليها خطرًا، فهم مع قوتهم ما هم بالنسبة إلى مملكة كارمينيا إلا شرذمة قليلون، وليسوا لها حتى بغائظين، فلو شائت أرسلت عليهم أسطولها فأهلكتهم عن بكرة أبيهم، وما يمنعها

عن ذلك إلا مواثيقها مع ممالك بلاد العرب الثلاثة، ولكنَّ ما أزعجها هو تضيقهم على تجار العبيد، ورفع ثمن العبيد بسبب الضرائب التي يُوجبونها على العابرين في بحر الروم من بلاد العرب، والذي لا يدفع تؤخذ سفينته وبضاعته ولربما حتى رقبته. وكان من تضيقِهم أيضًا أن أخذوا جزيرة التجار لهم يثقلون على القادمين إليها بالضرائب، بعد أن كانت منزلًا سهلًا للقادمين إليها حين كانت تحت سلطة مملكة سولين.

تعتمد كارمينيا على بلاد العرب في شيئين أساسيين: المواد الخام -كالزروع والمعادن المستخرجة من الأرض وغيرها- ويحصلون منهم على ذلك عن طريق التجارة معهم في جزيرة التجار؛ والعبيد، ويحصلون عليهم منهم في أرض كارمينيا من التجار غير الشرعيين القادمين إليها. ولم تتحرك حمية ممالك العرب لتمنع كارمينيا من شراء أبناء العرب عبيدًا، فقد كان التجار حذِرين فكانوا لا يأسرون إلا الضعفاء الفقراء الذين لا يحفل بهم أحد في مملكتهم، أو أن يأخذوا من المدن التي تقع بين موازين القوى ولا تُشكل وزنًا في بلاد العرب.

لأجل كل هذه الأسباب، توصلت مملكة كارمينيا إلى اتفاق مع فِرق القراصنة في البحر، أن تكون جزيرة التجار مكانًا محايدًا بين بلاد العرب وبين كارمينيا، لا يقربه القراصنة ولا يَرسُونَه، يعطونهم على ذلك مالًا وفيرًا يغنيهم عن إزعاج التجار وتخويفهم لأخذ الضرائب منهم؛ أمَّا ما يخص تجار العبيد العابرين من بلاد العرب إلى كارمينيا، فحددروا للقراصنة ثمنًا يأخذونه منهم لعبورهم ولا يزيدون عليه، فرضيت

الأطراف، وخضعت القراصنة للأسياد.

هذا الأسطول البحري الذي كان يعمل لحراسة الظالمين في سولين من أعدائها وشعبها...كيف لم يتعظوا مما حدث لأسيادهم في حادثة الطوفان العظيم، وهلاك الجزيرتين؟ أفلا يُبصرون؟ أفلا يعقلون؟ لقد هرب يومها من هرب من الأسطول من سولينَ خوفًا كأنهم حُمُرٌ مستنفرةٌ فرَّت من قسورة، وهلك منهم من هلك ممن كان يتحلَّقُ بالجزيرتين.

- (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

تَلَوْتُها بحرقة وأسف على هؤلاء الذين يظلمون الناس في البر والبحر، ولا يتقون ولا يتعظون؛ ألا يظنُّ ألئك أنهم مبعوثون؟

دفع تاجر العبيد الذي كان يسترقُّنا ضريبة العبور لإحدى سُفُنِ الأسطول، والتي كانت مهيبة الجانب، ضخمة الأشرعة، عاليةَ الصواري، مكتظة بالجنود الذين يحملون الأسلحة، ويحملون المال والذهب، ولكنَّهم لا يحملون القلوب بين جنوبهم، وثنايا ضلوعهم؛ ومع ذلك فهؤلاء الجنود، وهذه السُفن لم تكن شيئًا مذكورًا إذ رأينا أسطول كارمينيا شامخًا في البحر عند شاطئها، كأنهم حائط عظيم، ويقفون في نظام واستعداد، يهابهم الرجال الشداد، ويخشاهم كل من له عدة وعتاد؛ وما كان الرهب والرعب ليزداد في قلوبنا أكثر، حتى رأينا

جنودهم في البر بعد أن وَطِئنا شائطهم، ودخلنا عرينهم، فوجدنا رجالًا بواسل مغاوير، وسيوفًا نِصالها قواطع، وأسلحةٌ أخرى لم نعهدها في بلاد العرب، ولم نرها في عظيم ممالكها.

- هيا أيها العبيد الكُسالى...أسرعوا...نُريد أن نصل إلى السوق قبل أن تتعامد علينا الشمس.

دلفنا إلى سوق صغير على مشارف المملكة، كان مُخصّصًا لتجار العبيد ليبيعوا بضاعتهم فيه، ولِئلا يتوغلوا في البلاد أكثر من ذلك؛ وما أُعطوه من رخصة للدخول إلى البلاد من الأسطول البحري لكارمينيا كان لا يخوِّلهم للمسير في البلاد إلى ما هو أبعد من سوق العبيد.

- عبدٌ أفريقي أسود، قوي الساعد، شديد البدن، يساعدك في حمل أشيائك، وأداء أعمالك...

- عبدٌ عليمٌ بالقراءة والكتابة من بني العرب، خفيف الظل سيروِّح عليك وعلى أهلك، ويسليكم...

- عبدٌ حسن المظهر، تستنظرُ به عِلية القوم في المناسبات، ولا يكون وسمًا للعار لك فيها...

- جاريةٌ جميلة الوجه، مثيرة الجسد، عذبة الصوت، تغني لك طوال النهار والليل ولا تتعب...

لا تتعب! ما هذا الكذب والهراء؟ هل نسى هؤلاء القوم أننا بشرٌ مثلهم، نأكل مما يأكلون، ونشرب مما يشربون، ونقضي حاجتنا في

غوائطهم؟ ما أقذر هذه النداءات، وهذا السوق! أليس في الإنسان شيء آخر يرونه فيه غير ظاهره وما ينفعهم؟ أم هل خُلِقَ الإنسان للعمل طوال حياته لراحتهم وتسليتهم؟ أم هل ولدتنا أمهاتنا عبيدًا، وولدتهم أمُّهاتهم أحرارًا؟

– القائد كِيتْ! أهلًا بك سيدي. كيف كانت البضاعة الأخيرة؟

– أفضل أن أسميه خادمًا على أن أسميه بضاعة. لم يكن كما أردت، ولكن لا بأس به.

– ما رأيك أن أريك واحدًا جديدًا سينال أعجابك هذه المرة؟ أم أنك تريد جارية حسناء يا سيدي؟

– بل عبدًا قويًا حسن المظهر، حفيظًا، عليمًا.

– جئت للتاجر المناسب سيدي القائد. أنظر إلى هذا العبد ذي اللون الأسود كجوادٍ ليلي يرعب الأعداء منظره، وانظر إلى ساعديه القويين، وعضده الكبير...

– ماذا عن هذا الواقف هناك؟

– الفتى السولينيّ؟

– سولينيّ؟

– أجل يا سيدي. أختيار موفق. إنّه فتىً سولينيّ المنشأ ذي جذور أوستينية، شامية، وعاش فترة من الزمن في مدينة الحكمة، وهو قوي

البنيان كما ترى حسن الوجه...

- بكم تبيعه؟

- كلُّ هذه المميزات ستجعل منه غالي الثمن بالتأكيد يا سيدي القائد.

- أوجز وكفَّ عن التحايل

- حسنًا، يا سيدي القائد...بخمس مائة يوكا.

- كعادتك تُغالي في بضاعتك، ولكنَّي لست في مزاجٍ جيد للمساومة...خذ

- شكرًا يا سيدي القائد، لن تندم عليه، وستجده خادمًا جيدًا، وربما أيضًا جنديًا مطيعًا.

- -ما اسمك يا فتى؟

- قاسم يا سيدي.

- حسنًا تعال...خذه أيها الجندي وسام ورائك على الحصان، وأوصله إلى شُريقة، وأنا سأذهب لأقابل قائد الأسطول البحري زيدين، ثُمَّ سألحق بكما.

- أمرك، سيدي

- هل لي أن أسأل سؤالًا؟

- اسأل؟

– من هذا السيد المحترم الذي اشتراني للتو؟

– إنَّه القائد كيت.

القائد كيت: قائد جيش شُريقة، أقوى جيوش مملكة كارمينيا، وواحد من جُلَساء الملك سيدور – ملك مملكة كارمينيا- ومقربينه. صحيحٌ أنّه ركيك اللسان في العربية، ضعيف البلاغة والبيان فيها، ولكن هذا لأن لغتهم الكارمينية تختلف كل الاختلاف عن العربية؛ فهم بالنسبة لنا عجم، ونحن عجمهم. كان لسان الجندي الذي يصحبني أحسن حالاً من لسان قائده، يبدوا أنه قد عاش فترة في بلاد العرب.

– اسمك وسام – يا سيدي- أليس كذلك؟

– بلى!

– إذًا فأنت عربيٌّ.

– أجل، أنا من مدينة قُلَيْقَلَة الواقعة جنوب مدينة أوستين المنكوبة.

– أمنكوبة تقصد بسبب الجراد؟

– فمن؟ لقد حلَّ هناك فأكل الأخضرواليابس، وخلَّف الأرض يبادًا. هجرها أغلب سكَّانها، ولم يبقَ فيها إلا قليل يعيشون على محاصيل الشتاء. لم أكن قد ولدت في بداية الأزمة لذلك لم أرَ أوستين إلا أرضًا جرداء، على عكس ما حكى لي آبائي. أتعلم؟ لولا الجراد لما كنت أتيت إلى هنا لأباع كالعبيد؛ فقليقلة كانت تحت حماية أوستين، حتى ضاعت أوستين، فضاعت قُليقلة، وأغارت عليها مدن عدة، وأُخِذتْ أسيرًا في

إحدى هذه الغارات.

صمتَ بُرهة وطأطأ رأسه، ثم استطرق قائلًا:

– ولكن بعد ذلك جعلني القائد كيت أعتلي مقامًا رفيعًا، وأصير جنديًا من جنود قصره، ومساعدًا له في شؤون يومه؛ إنّه شخص كريم طيِّب القلب، ولا أظنّه سيريد بك سوءً، فلا تقلق.

هجمت عليّ الذكريات بعد مقالته هذه، فآثرت الصمت لباقي الطريق، وأخذت أتذكر أبي، وما عشته معه، وأمي التي فارقتني قبل أن أبلغ قوةُ الشباب، والإمام، ووصاياه هو وأبي التي خنتها ونسيتها، ومعصيتي لأمر ربِّي التي عصفت بي في تلك المدينة المشؤومة، ولربما يكون استرقاقي تكفيرًا لي عنها، أو عقابًا لي عليها، ولكنِّي أتوب إلى الله، وأرجو منه العفو والصفح والمغفرة، وهو الغفور الرحيم، محب العفو، وأهل الصفح والكرم.

أخذنا في الطريق ثلاث ليالٍ على الحصان نمرُّ على مدن كثيرة عظيمة الأبنية، فخيمة المنظر، دقيقة النظام، نظيفة الطرقات، كريمة لم تمنعنا زادًا، ولا متاعًا؛ وكيف تمنعنا ولنا صلة بالقائد كيت؟ وصلنا أخيرًا إلى مدينة شُريقة: عاصمة كارمينيا، وعروسها، ولؤلؤة عِقْدِها. كانت مُسوّرة بالأسوار التي تعلوها الجنود، ويقدمها سور بشريٌّ من الجنود الأشداء الممتطين فُرُسَهُم؛ وكان في السور الحجري بوابة خشبية شاهقة الارتفاع، غليظة السمك، عريضة.

فُتِحت لنا البوابة بعد أن أشهر الجندي الذي يصحبني ورقة تُثبِت

هويته، وأراهم شارته الفضية التي تُثبت أنّه من جنود المدينة، وأراهم ورقة البيع التي أُشْتُرِيتُ بها، والموقَّعِ عليها من قبل القائد كيت.

دلفنا من الباب، وإذا بي أرى ما لم أعهده يومًا، ولم أظن أن يكون له وجود إلا في جزيرة الجوهرة في سولين -التي لم أطأها يومًا- أو في قصص الخيال التي يرويها لنا القصَّاصون. قصورٌ حجرية مُرصَّعةٌ بالذهب والفضة، تحوِّطها بيوتٌ ذات أربعة طوابق، أو خمسة، وأسواقٌ منظمة تمتدّ في شوارع عريضة ممهدة، ومصانع مشيَّدة، ودور عبادةٍ مُبيَّضة؛ الرجال يرتدون ملابس غريبة لم أعهدها، كانت مقسمة إلى قطعتين، القطعة السفلية هي سراويل فاخرة، والعلوية قمصانٌ قصيرة مزخرفة مطرَّزةٌ بشتَّى الألوان وبهيِّها، أمَّا ملابس النساء، فكانت جلابيب قطنية وحريرية رقيقة مقطّعة الكُمَّين، ومتباينة الطول في الذيل، فطرفٌ قصير وآخر طويل، وشعورُهنَّ مُسدَلةٌ علي أكتافهنّ كالحرير الذي يلبسنه، وتزينهن عقود وأساور وخواتم وخلاخيل من الذهب؛ على ما كان في أمرهن من خلاعة وخدش للحياء، إلا أنِّي لم أحزن عليهن، فهن لسن بمسلمات، وليس لهم دِينُ حقٍ يرشدهم إلى الخير والصواب، على عكس ما كان في مدينة الحكمة.

كانت الهندسة المعمرية للمباني بديعة، فكانت متباينة الشكل، جذّابة المنظر، تأخذ أشكالًا هندسية مختلفة؛ وكان التخطيط المعماريُّ للمدينة دقيقًا، مدبَّرًا، ومسيطرًا عليه، فكانت البيوت متراصة على شكل مثلثات قاعدتها متجهة إلى السور الحجري، ورأسها موَّلًى إلى

منتصف المدينة، وعلى رأس كل مثلث قصر من قصور كبار مسؤوليها، وفي قلب كلّ هذه المباني أربعة قصور في زوايا مربّع، وفي مركزها قصر مَلِك شُريقة وكارمينيا، والذي لا يختلف كثيرًا في الفخامة عن الأربعة قصور المحيطة به، إلا أنه في أعلاه شعار مملكة كارمينيا مطليًا بالذهب، والذي كان حصانًا يمتطيه فارسٌ يرتدي درعًا حديديًا كاملًا يغطيه من شعر رأسه إلى أخمص قدميه شاهرًا سيفه في الهواء. عَلِمتُ لاحقًا أن هذه القصور الأربعة هي قصور الوزراء الأربعة للملك:

الخازن: والذي كان المسأول عن الأموال في المملكة.

وزير البناء والمَعَارش: والذي كان مسؤولًا على البناء والتشييد في المملكة، فلا يُبنى فيها شيء إلا بأمره، ولا يُزاد في بناء شيء إلا بموافقته.

قائد الجيش: والذي كان نائبه وذراعه الأيمن هو القائد كيت.

وزير الحكمة والقضاء: والذي كان يعتبر أقرب الوزراء إلى الملك، وله السلطة من بعده، وهو نائبه إذا حلت بالملك نائبة من نوائب الدهر.

لا يُصدر الملك قرارًا إلا بمشورتهم، ولا يعطي أمرًا إلا بعد أخذ رأيهم فيه؛ وهكذا هي بلاد العدل...لا ينفرد فيها إنسان برأيه، ولا يظلم بسلطانه.

كان القائد كيت في أحد القصور التي تترأس مثلثًا من مثلثات أبنية المدينة. كان قصرًا عظيمًا، عالي العِماد، ذي فِناء واسع به من الأشجار والحدائق ما لا يجعل الناظر يتردد في تسميتها جنّة من جِنان

الدنيا، وبُستانًا ذا أفنان؛ وكان الحرس يتوزَّعون حول قصره، والعبيد والجواري يخدمون داخله وخارجه، ثم يبيتون في مبنى مُلحق بالقصر، وكانت للقائد كيت زوجةٌ حسناء، فاضلة، تصغره بخمس أعوامٍ -أي في الخامسة والثلاثين من العمر تقريبًا- وكان لهم ثلاثة أولاد وبنت، لم يتجاوز سنّ أكبرهم العاشرة.

لم يمرَّ كثيرٌ من الوقت حتى ألفينا سيدنا لدى باب القصر، وفي يده سيفه موضوعًا في غِمده؛ ناوله لأحد الخدم بابتسمة محييًا إيَّاه، فرد له الخادم الابتسامة وزاده انحناءة بسيطة احترامًا وتبجيلًا، ووضع السيف في مكانه المخصص له على الحائط. أندفع الأطفال نحو أبيهم ليسلِّموا عليه، فاحتضنهم بحنو ولطف، وزادهم بقبلة على جبين كل منهم، فعلمت أن هذا الرجل ليس متكبرًا ولا غليظًا كطبقات الأغنياء الذين صادفتهم في جزيرة التجار. كنت واقفًا بجانب أحد الجُدُر بملابس باليةٍ متسخة عليها أثر السفر والهوان والعبودية، فاقترب مني القائد بجسمه العريض، وفرعه الطويل، وطلّته البهية البشوشة، وأمر أحد العبيد أن يأخذني لأستحم ويعطيني ملابس جديدة نظيفة، وقال لي:

- مرحبًا بك أيها الفتى في مدينة شُريقة، أتمنى أن تسعد ببقائك هنا في القصر، وأن تكون مطيع الأمر، طيب المعشر كما استوسمت فيك.

لم أفهم كل كلماته بسبب ركاكة لسانه، وأعوجاجه في العربية، ولكنِّي خفضت بصري، وشكرته على كرمه، ومن ثم انصرفت مع الخادم لأنَظِّم هندامي، وأزيل ما عَلِق بي من درن السفر، وودت لو أن

أزيل ما علق بي من ذل العبودية والقيد إلا أنّني لم أستطع، فالماء لا يصل إلى ما يصل إليه الذل والهوان. ساعدت العبيد والجواري في المطبخ على إعداد مائدة العشاء للقائد وأسرته.

– أجلس أيها السولينيُّ. ذكرني...ما اسمك؟

– قاسم.

– حسنًا، يا قاسم. أنت حسن الوجه، قوي البدن، وتبدو عليك الحنكة والفطنة؛ ماذا تتقن؟

– القراءة، والكتابة، وأحفظ القرآن الكريم -كتاب المسلمين المقدس- وبليغ في العربية، أتقن السباحة، والرماية، وركوب الخيل، وصيد السمك، ولدي خبرة بالتجارة.

– عجبًا...يبدو أنك من ابناء الأثرياء؛ كيف صرت عبدًا، يا قاسم؟

– بعد الطوفان العظيم في سولين، آثر والدي -والذي كان أكبر تاجر سمك في جزيرة المهاجرين- السلامة، فهاجرت معه إلى مدينة الحكمة، وكانت أمي قد ماتت قبل ذلك، ثم مات والدي أيضًا في الطريق، فعشت في كنف جديَّ من أمي؛ وكنت أعمل في المدينة عند تاجر سجاد هناك يُدعى صالح -وما هو بصالح، كما مدينة الحكمة- فغدروا بي وبصديق لي كنا ننصح الناس سويًا، وباعونا لتاجر عبيد في مدينة العزة جنوب مدينة الحكمة.

– حسنًا...وأين صديقك هذا؟

– فرّقوا بيننا عند شجرة وبئر، ولست أدري أين ذهبوا به بعد ذلك.

– من أين كان أبوك؟

– أوستين يا سيدي.

– هكذا الأمر إذن! لذلك أتى بك التاجر إلى كارمينيا لئلا يعرفك أحد في بلاد العرب. ومن أين أمك؟

– من بلاد الشام.

– يالا العجب! لدي فتىً من سولين، وأبوه من أوستين، وأمه من بلاد الشام، وعاش بعضًا من السنين في مدينة الحكمة. إنّه لشيء يستحق الإكبار والإعجاب؛ لقد طفت بلاد العرب يا فتى!

أُعجِب القائد بي أشدَّ الإعجاب، ولم يملك إلا أن يوظف مهاراتي، وخبرتي ونسبي في خدمته بأن يجعلني من مقربيه.

– سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين بشأن تعلمك ركوب الخيل والرماية. ستأتي غدًا معي إلى مقرِّ تدريب الفرسان لأختبر مهاراتك فيها؛ ولكنّك أيضًا ستكون خادمًا لقصري، وستعيش فيه وتأكل منه رغدًا هنيئًا، إلى أن أقرر أمرًا. عزيزتي...أحسني معاملته ولا تضربيه ضرب العبيد، ولا تُهينيه إهانتهم، فهذا فتىً كريم، وأريد به أمرًا عظيمًا، وأرى أنَّه سيكون ذا شأنٍ شريفٍ في كارمينيا.

في صباح اليوم التالي، كنت على موعد مع منظر تذهب العقل هيبته، ويسحر الألباب جماله، ويرعب الأعداء وجوده؛ ذهبنا إلى مقرِّ تدريب

فرسان مدينة شُريقة، والذي كان على أطراف المدينة. كان الفرسان رجالًا أشداء مهرة، يمتطون أحصنتهم بخفة ورشاقة، ويقودونها قيادة متزنة، ويرتدون دروعًا واقية ثقلية، ولكن الناظر لحركتهم بها يظنها أخف من الريشة، ويلوحون بسيوفهم الثقيلة بتمكن كأنما يمسكون عصًا خشبية في أيديهم؛ وكانت الأحصنة أصيلة في مشّيتها، سريعة في عَدْوِها، مروضة مطيعة، جميلة، فاتنة.

– هل أعجبتك الأحصنة؟

– أجل يا سيد وسام...هل هي عربية؟

– أجل...كارمينيا تجلب الأحصنة من بلاد العرب لتكون لفرسان شُريقة خاصة، أمَّا أحصنة كارمينيا فتذهب لفرسان باقي المملكة.

– قاسم!

– أجل سيدي القائد.

– ألبس هذا الدرع، وأرنا مهارتك في ركوب الخيل.

– حسنًا سيدي القائد.

– ربَّاه...ما أثقله من درع. كيف لي أن أركب به حصانًا أو أن أمشي به حتى!

أسررت هذه الشكوى في نفسي ولم أبدها لهم، حتى لا يظنُّوا بي ضعفًا أو جُبنًا، إنَّها لشتيمة للعرب حينها. يجب أن أثبت جدارتي، وأريهم أنِّي

راكب خيول ماهر.

– سقطةٌ جيدة أيها المبتدأ.

– صمتًا أيها الفرسان...حاول ثانيةً، لكن هذه المرة بدون الدرع.

– حسنًا سيدي.

الآن سأريهم كيف يكون ركوب الخيول العربية الأصيلة.

استعرضت مهاراتي بهذا الخيل المروَّض، ورأيت شبح ابتسامة على وجه القائد كيت بعد أن أوقفت الحصان أمامه بمهارة.

– أحسنت...ليس سيئًا، ولكنَّك ستأتي إلى هنا كلَّ يوم لتتدرب على ركوب الخيل بالدروع والسيف. الآن، هيا لنعد إلى القَّصر، فلديك عملٌ كثير لتنجزه.

مرَّعليَّ أسبوعان من العمل المضني في القصر، فقد كنت أحرث الأرض، وأسقي الزرع، وأذهب مع السيدة إلى السوق لأحمل لها ما تشاء من مشتريات، فقد كانت تحب أن تنتقي مشترياتها بنفسها، وكنت لا أكاد أنتهي من عملي في القصر مع أذان الظهر، حتى أذهب للتدرب في مقر تدريب فرسان شُريقة، فأعود إلى البيت وقد أظلمت السماء، وأشرقت النجوم والكواكب، فأشارك باقي العبيد طعام العشاء في مكان نومنا، ثمَّ أنام نومًا عميقًا لأكرر يومي في الصباح التالي.

– لنرَ ماذا فعل بك هذان الاسبوعان.

- لن أخيب ظنك سيدي.

ركبتُ الخيل بالدروع التي كانت تأودُني في السابق، وامتطيت الحصان، واستللت سيفي ولوحت به في السماء كما رأيت الفرسان يفعلون أول مرة، وعَدَا الفرس بانقياض وكأن على ظهره فارسه الذي روَّضه، وكانت الدروع كملابسي، والسيف كساعدي، ولم يملك القائد كيت إلا أن كشف عن صف أسنانه وصفّق لي وأمر باقي الفرسان أن يُصَفِّقوا لي بحفاوة.

- رائع يا قاسم...أنت حقًا قوي، وماهر، وسريع التعلُّم. أعلنك الآن فارسًا تحت التدريب، وأظن أني عمّا قريب سأعلنك فارسًا من فرسان شُريقة النبلاء.

ابتسمت حتى بدت نواجذي، وانشرح صدري لما سمعت، وتهلل وجهي، إذ أحسست لأول مرة منذ عدة أسابيع أني لست عبدًا في القيد، وإنما شخص حر، ولكنِّي نسيت أني لا زلت مقيدًا باسم العبودية، وورقة هوية -تدل على هوان حالي- كنت أشهرها في كل مرة للحراس الذين يستوقفونني للتفتيش عند مركز التدريب أو قصر القائد كيت، أو في بعض طرقات المدينة.

مُذ أن مكثت في القصر وأنا أراقب أحوال قاطنيه، وأسبر أغوار حياتهم بأذني وعيني؛ ليس تجسسًا ولا تحسسًا، ولكن من مكث يخدم في القصر لم تخفى عليه خافية إلا ما أبى أهل القصر إلا أن يبقى بينهم وألا يتسرب إلى جنديٍّ أو عبد.

كان العبيد إذا فرغوا من عملهم، ذهبوا إلى مسكنهم في ذيل القصر ليأخذوا مضاجعهم، فيتسامر بعضهم، والبعض يُسامر أحلامه إذا غلبه النعاس لشدة إرهاقه في يومه. كانت أحاديثهم غالبًا ما تتأرجح بين حكايات كل منهم في بلده التي أخذ منها، أو مغامراته في القيد وحياة العبودية، وانتقاله من سيد إلى آخر حتى وصل إلى السيد الكريم القائد كيت؛ وكنت أنا كشجرة صامتة لا أشاركهم إلا الاستماع. لم أكن أؤثر الصمت لأني أبغض حديثهم أو شخصهم، لا...ولكنِّي لم أجد في حديثهم ما يؤنسني -وإن وجده البعض مؤنسًا لهم- فهو لن يزيدني إلا حُزنًا على الماضي، وإن الأحزان لتستدعي بعضها شوقًا إلى بعض.

– أيها السوليني...ما بالك تسمع قصصنا، ولا تُسمعنا حتى همسك؟ أليس عندك ما تحكيه لنا، ليسلي ليلنا، وينسينا تعبنا ورتابة حالنا؟

– أيجب أن تكون القصة عن حاكيها؟

– تظل القصة قصة يا صديقي وإن لم تكن عن راويها. شاركنا الحديث وفقط؛ ويا حبذا لو تكون قصة حقيقية.

– حسنًا...لستُ جيدًا في سرد القصص، ولكن ما رأيكم في قصة شخص كان عبدًا مثلنا، ولكنَّه سيدنا؟

– عبدٌ، وسيد في نفس ذات الوقت! من يكون ذلك، يا قاسم؟

– هل هي قصة حقيقية أيها السوليني؟

– أجل، كحقيقة أنِّي بينكم الآن.

- إذًا فاقصص القَصَص.

- كان فيما كان، في زمنٍ من الأزمان، عبدٌ حُر: السيد بلال بن رباحٍ الحبشيِّ...

كانَ في مكة: أم القرى، وأرض الحج في بلاد العرب رجلٌ يُدعى بلال، أُستُجلِبَ عبدًا من الحبشة ليخدم أحد أسياد العرب وساداتهم في مكة. كانَ بلال رجُلًا أسود اللون، حبشيَّ الهيئة، نَدِيَّ الصوتِ، في ريعان الشباب.

- أفعل هذا يا بلال

- أمرك، يا سيدي

- لا تفعل هذا يا بلال

- انتهيتُ، يا سيدي

- بلاااال!

- لبيك، يا سيدي.

كان عبدًا مطيعًا لا يُخالف لسيده أمرًا، وكيف لمن خاف العقاب أن يُسيء الأدب؛ وكان لجمال صوت بلال أثرٌ في حياته جعل سيده يختزله للإنشاد له ولضيوفه في الحفلات والمناسبات والولائم. كان هذا الصوت الرطب يطرب السامعين، فيلعب بآذان حضور سيده كما تلعب الخمر بعقولهم، ولكنهم لم يكونوا يرون أن هذه ميزة لصاحبها،

بل هي ميزة لمالك صاحبها فقط.

كان العرب في السابق قوم جاهلية، يأدون البنات، ويشربون الخمر، ويتبادلون الزوجات، ويزنون، ويسافحون؛ وكانوا يظنون بالرجل ذي الصوت الجميل في الغناء أنه غير مكتمل الرجولة، وأنّ النساء هن الأجدر بكهذه ميزة في حناجرهن، فإن امتلكها رجل فهو ناقص. لم يكن الأمر ليزعج بلال كثيرًا فقد كانت جراح العبودية وآلامها تغطي على أي جرح آخر قد يصيب نفسه، أو يؤذي كبريائه ويخدش حيائه، فلا أسوأ من أن يُمتَلَك جَسَدُك، ويُهان جانبك، وتركع لبشر مثلك.

ومن يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت إيلامُ

ظل بلال في هذا الهوان أعوامًا عديدة، وأزمنة مديدة، يضع رقبته ويُطأطِئها بين يدي سيده، ولا يحلم إلا بعتقها. سأله أحد أصدقائه الأحرار يومًا:

– لم لا تهرب يا بلال فالصحراء شاسعة، وأرض الله واسعة؟

فما كان ردُّ بلال إلا:

– إلى أين؟ أإلى قصري الفاخر الذي ينتظرني في الصحراء مثلًا، أم أهلي الذين يلوحون لي على مشارف مكة؟

إنَّ ما تمكَّن من بلالٍ لم يكن قيد العبودية فقط، بل كان اليأس، واليأس هو آفة مهلكة، ونار للحياة محرقة. لكن أتدرون؟ لقد اكتشف

بلال شيئًا غريبًا؛ اكتشف أنّه عبدٌ يخدم لسيده، أمَّا سيده فعبد للحجارة والمال، فأيهما أكثر ذلًا: من يخدم إنسانًا ذا عقل وسوط وعقاب، أم من يخد حجارة وأموالًا لا استطاعة لها ولا ألباب؟

كان سيده -كما باقي أهل مكة وساداتها- يذهب إلى أصنام أجداده التي نصبوها عند الكعبة، فيمرغ وجهه لها في التراب ويعفرها، ويطلب منها الرحمة والفضل، ويرجو منها ما لا تقدر عليه، ويعطيها ما لا يزيدها إلا جمودًا وتحجَّرًا. عجبًا لهؤلاء القوم! يصورون العجوة آلهة لهم، ويأكلونها إذا بلغ بهم الجوع مبلغه؛ ويجمعون المال ليل نهار، ثم يعطونه قربانًا لهذه الأصنام لعلها تزيدهم منه شيئًا؛ وأنّى لها أن تزيدهم وهي لا تملك لنفسها نفعًا، ولا ترد عن نفسها ضرًا؟ ظلت مكة والعرب في غيابات الجهل هذه أعوامًا كثيرة، حتى ظنَّ القوم أنَّ هذه الأصنام كانت منصوبة عند الكعبة منذ بداية الخليقة، إلى أن جاءهم نور وكتابٌ مبين، يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سُبُل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

- يال الجهل... يعبدون حجارة مصورة على شكل بشر!

- ما بالك يا هذا تتعجب لأمرهم؟ أنتم هنا تعبدون حجارة متوهجة في السماء، فما الفرق بينكم بكبير.

سمع بلال عن دين الإسلام الذي ظهر حديثًا في مكة على يد رجل يُقال له محمد بن عبد الله بن عبد المطلب: رجلٌ قُرَشيٌّ النسب، حسنُ الخِلقَة حسن الخُلُق، لين المعشر، أمين، صادق، لا ينقض عهدًا، ولا

يخلف وعدًا. دعى سيدي محمد - ﷺ - في هذا الدين إلى عبادة إله واحد، ونَبْذِ ما كان يعبده العرب من اسماء سمَّوها هم وآبائهم ما أنزل الله بها من سلطان، لا تُغْنِي ولا تُفْقِر، ولا تنفع ولا تضر، ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله، ولئن نهرتهم عن الإشراك به، ليقولن ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلفى. يحسبون الله بعيدًا لا يسمعهم، فوضعوا بينهم وبينه وساطة ليخبروهم حاجتهم منه. تعالى الله عمَّا يصفون...تعالى الله عمَّا يشركون.

لم تكن هذه الدعوة الوحيدة التي يدعوا إليها الدين الجديد، ولكنَّه دعى أيضًا لأن يترك العرب فُرقَتَهم، وجاهليتهم، ويذروا عادات آبائهم الفاسدة البالية، ويضعوا عنهم إصرهم وأوزار الحروب التي افتعلوها بينهم، ويضعوا عن الناس الأغلال التي وضعوها عليهم، ويخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رَبِّ العِباد.

- ومن ربَّهم؟

- ربُّكم، وربُّي، وربُّهم، ورَبُّ آبائكم الأوَّلِينَ...الذي خلقنا فهو يهدينا، والذي هو يطعمنا ويسقينا، وإذا مرضنا فهو يشفينا، والذي يميتنا ثُمَّ يُحيينا، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئاتي يوم الِدين، وألّا يُخزني يوم يُبْعثون، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

- وهل هذا الرب هو الذي خلق النجوم والكواكب التي نعبد؟

- خلقها واصطفى لنا الأرض لنعمرها، واصطفى لنا الشمس لتدفئنا، ورزقنا القمر ليضيء ليلنا، وأنعم علينا بالنجوم لترشدنا في

ظلمات الطريق وتهدينا.

إنَّ الناس ضِعاف، ولا بد لهم من قوة عظمى ليعبدوها، وهم يعرفون العظيم بقدرته، وبجمال طلَّته؛ فهنا انبهرتم -وأهل كارمينيا- بالنجوم والكواكب لضوئها، وفي مكة انبهروا بالتماثيل لإتقان صناعتها، ودقة تفاصيلها، وكبر حجمها، واسمائها الرنانة، وسمعتها السابقة لها، ووعود الكهنة والدجالين وكل الكذابين والمحتالين.

- فلماذا لا نرى الله لننبهر بعظمته، فنذر ما نعبد، ونعبده؟

- نورٌ أنَّى يُرى؛ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، خلق السماوَات والأرض ليبلو النَاس أيهم أحسن عملًا، فلو كَنَّا قد رأينا ربنا، لانصرفنا إلى عبادته عمّا سواه كَرْهًا -كما قلت- فضاع الاختبار، وضاع الابتلاء، واستوى المؤمنون والمنافقون والكافرون، كما يستوي العبيد في طاعتهم لأسيادهم إذا أراهم بطشه.

ذهب بلال ليستطلع أخبار هذا الدين الجديد، فوجد فيه حريته. سيكون عبدًا لله، أمَّا عبوديته لسيده الضال، فلن يكون له إلا خادمًا ومِلْكُ يمين -حتى يُجعل اللهُ له من أمره يُسْرًا- لكنَّه لا يملك قلبه ولا فكره ولا عقله، وإن امتلك جهده وبدنه.

- كيف تكون حرًا وأنت ستنتقل من عبودية إلى عبودية أيها السوليني؟

- هنا -في عبادتنا للبشر- من يأخذ من الآخر؟ هل يأخذ سيدك

جهدك وحريتك وأفضالك التي بدونها لن يستطيع أن يجد حتى من يذهب بالنيابة عنه إلى السوق، أم هل تُراك تأخذ أنت من أفضاله؟ واللهِ إنَّ في عبودية البشر، ما ينال العبد من سيده إلا فضلات طعامه ومتاعه وما تبقى منه وزهد فيه، أمَّا ربُّنا فهو الغني سبحانه، لا يريد منَّا رزقًا ولا إطعامًا، بل هو الذي يتفضل علينا، وعلينا يُنعم، وهو الذي يعطينا فضلًا، ويمنعنا عدلًا أو حكمةً. إنَّما يستعبد قلوب الناس من يحسن إليهم، والله خير المحسنين إلينا -سبحانه وتعالى.

اتخذ بلال الإسلام له دينًا، وأختار النبي محمدًا - ﷺ - له دليلًا، ورضي بالله ربًّا ونصيرًا. كتم بلال خبر اعتناقه للدين الجديد، ولأن الوشاية في كل مكان وزمان، علم سيدُ بلال الأثيمُ بما فعل بلال، وقد كان ذاك السيد الضليل يعادي الإسلام ونبيه - ﷺ. قرر هذا المجرم أن يتخذ العذاب طريقًا ليثني به بلال عن فعله، وليعاقبه على ما ظنه - بجهله- جرمًا وخيانة؛ فقاده بالسلاسل، وأذاقه نكالًا شديدًا، وجلده جلدًا غليظًا، ولم تأخذه به رأفة ولا شفقة.

- كم رَبًا لك يا بلال؟

فيجيبه بلال:

- أحدٌ أحد...أحدٌ أحد

فيغتاظ أُمَيَّةُ فيجره في رمال مكة المحرقة في وضح النهار، ويجيء بحمل عظيم يكاد الجبل ينوء به، فيضع على صدره صخرة، ويُنْزِل على جِلدهٍ أشد اَلجَلْدِ، ويكرر عليه سؤاله، فيكرر له بلالٌ جوابه، فَاغتاظ

وبُهت الذي كفر، وهَزمه الذي تحت الصخرة يُعذَّب، حتى جاء أبو بكر فقطع على بلال آلامه، وعلى الضال كَمَدَه وغيظه، واشترى منه بلالًا بسعر غالٍ في نظر التجار، زهيدٍ في حق بلال بن رَبَاح...عبدِ الله، الذي حُرمةً دمه عند ربه -هو وأي مسلم- أشد عند الله من حُرمة بيته الحرام في مكة.

شكر بلالٌ لأبي بكر، فرد له أبو بكر شكره بقوله:

- بلال...أنت حُر لوجه الله

فشكر الله لأبي بكر فقال -عزَّ من قائل: (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى).

مضى بلال مع رسول الله - ﷺ - ورَكْبُ المسلمين، وهاجر معهم إلى المدينة حيث بنوا المسجد النبوي: بيتٌ يُعبَدُ فيه الله فلا يُشرك معه أحدٌ، مسجد أُسِّسَ على التقوى من أوَّلِ يوم. علم النبي - ﷺ - ما في نفس بلال من جمال صوته في الإنشاد وظَنِّ الناس به أنه بذلك غير مكتمل الرجولة، فجعل النبي - ﷺ - بصوته نداء الله في الأرض: أشرف نداء على وجه البسيطة...يؤذِّن أن حيَّ على الصلاة حيَّ على الفلاح، وجعل النبي لونه الذي احتقره العرب سابقًا لقتامته يعتلي فوق رؤوسهم على مئذنة المسجد مُناديً بصوت الأحرار، أن لا يوجد عبدٌ لغير الله، وأنَّ الأمر كلَّه لله، وأن "الله أكبر" فوقي وفوق كل العباد.

نظرت في أعين العبيد والإماء من حولي بعد أن سردت لهم قصة

بلال، فوجدتها تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، فقالوا أمنَّا بالله واشهد بأنَّا مُسلِمون.

لم يُغير من الأمر شيء دخول جُلّ العبيد في القصر في الإسلام، فقد ظلَّ الأمر على حاله في القصر: خدم المطبخ يطهون ويعدون الطعام، وحراس القصر يسهرون على حراسته ويقضون فيه النهار، والخدم ينظفون، والبستانيون يزرعون، وأنا أذهب للتدرب على الفروسية في مقر التدريب، وأذهب برفقة سيدة القصر إلى السوق لتشتري ما يلزمها. لم يكن القائد كيت بالرجل المتعصب لدينه، أو الكاره لغير عرقه، فعندما سمع صوتي في القرآن وأنا أصلي بالعبيد في مضجعنا في قصره تفاجئ بادئ الأمر، وأذهله المنظر؛ فوقف مشدوهًا يرقب صلاتنا، ووحدة صفنا، ويسمع تلاوة القرآن وعذوبته؛ وبعد أن فرغنا من صلاتنا، سألنا بضع أسئلة عنها وعن ديننا، ثُمَّ انصرف وعاد كلٌّ إلى عمله كأنَّ شيئًا لم يكن؛ لم يكن لديه مشكلة مع صلاتنا وإسلامنا ما دام أن الأمر لن يؤثر على عمل العبيد في القصر وتأدية واجباتهم.

لم تكن الصلاة وحدها هي ما جذب انتباه القائد، بل والأمانة والصدق اللَّذَيْنِ امتلأ القصر بهما، فقد دخل العبيد في الإسلام بكليَّتهم، فلم تكن مجرد كلمة يقولونها ثُمَّ يَنْبِذُون آدابها وراء ظهورهم، بل كان إسلامهم قولٌ وعمل، ورأو فيه حريتهم وهدفهم السامي من حياتهم، كان الإسلام باعثَ الحياة والأمل فيهم...تمامًا كما حدث مع بلال في السابق. لم تكن صفة الأمانة غريبة عن القصر والقائد كيت وزوجته،

فقد استوسموها فيَّ، واختبروني كثيرًا حتى اطمأنوا لنزاهتي، وصدق قولي، وحفظي للأمانة، فكانت السيدة لا تخرج للسوق مع أحدٍ من العبيد غيري، وكانت تأنس بالكلام معي في الطريق، وتطيل الشراء ولا تجد على وجهي علامات ضجر أو تعب. وفي إحدى المرات في السوق، كنَّا قد خرجنا من محلٍ للأقمشَّة، وحمَّلت البعير حملًا كثيرًا، فأشفقت عليه وحملت عنه بعضًه، وكنت أسلِّي نفسي في الطريق بأحاديث السيدة، وبالنظر في وجوه المارة، ولم أكن أرى فيهم الكثير المميز، أو الاختلاف الكثير، ولكني في هذه المرة أبصرت ما توقفت له قدماي عن السير، وتسمرت عيناي صوبه؛ رأيت ما لم ترَ قط عيني، وما لا مثله تلد النساءُ...رأيت جمالًا يجذب كلَّ عينٍ وفي حقه الصمت لِزامُ.

كانت فاتنة المنظر، مدورة الوجه كأنها القمر -ولكن كيف للقمر أن يطلع في وضح النهار؟ - وكانت عيناها ساحرتين كأنهما لؤلؤتين سوداوين قد حُفَتا بالبياض، ورأيت لها أنفًا ظريفًا، وثغرًا لطيفًا باسمًا تكشف عن أسنان كأنها الؤلؤ والمرجان؛ كانت ترتدي جلبابًا حريريًا يغطي مفاتنها، ويستر مكامن جمالها على عكس ما ترتدينه نساء كارمينيا؛ كانت شابة برَّاقة الجمال، وضَّاءة الوجه، ينعكس ضوء الشمس عليه حتى يكاد ضوئها يصيب عينيك المسكينَتَيْنِ بالعمى.

لم أملك لساني ولا قدمي ولا عيني فوقفت شاردًا في جمالها، وأنا الذي كنت قد تبت عن النظر إلى النساء، وأُلْجِمَ فَمِّي، فلم أُجِبْ حديث سيدتي؛ جائت ففتنتني بجمالها، ومشيتها الحيِية، وهدوء طلتها، وسحر

ابتسامتها، فخرجت عيناي من قيدها، وتأملت في هدوءها وجمالها.

- قاسم...قاسم...قاسم!

- أجل سيدتي!

- ماذا بك، لماذا صمتَّ وتوقفت فجأةً هكذا؟

- عذرًا سيدتي.

- إلام تنظر؟ أهااا...هكذا هو الأمر إذن...هل أعجبتك الأميرة آيو؟

أحمر وجهي خجلًا من جُرئة سؤالها وفجأته. يبدوا أنها لاحظت تسمُّر جسمي، وبلاهة نظرتي. كيف لفارس متدرِّب مثلي، ومسلمٍ قد تاب من النساء والنظر في جمالهن، أن يُسحرً هكذا ويًضعف.

- الأميرة آيو!

- أجل أيها الشقيُّ الصغير...إنها ابنة ملك شُريقة وكارمينيا كلها... الملك: سيدور إنها...

- الأميرة آيو!

أخذت أكرر اسمها كثيرًا بصوت خافت، وعقل شارد، وعينين تتلفتان ناحيتها هي وحارساها ومرافقتها. أنا أعرف هذا الشعور؛ إنَّه سُكْرٌ كالذي كان يصيبني من الخمر؛ ولكنِّي أقسم أنِّي لم أذقها منذ تبت لربي في مدينة الحكمة!

- استغفر الله...استغفر الله...

مردِّدًا الاستغفار لباقي الطريق، ومستمعًا إلى حديث سيدتي عن حفلاتها ومغامراتها مع صديقاتها وأنواع القماش والزينة، عدت إلى القصر ثم انصرفت إلى تدريبات الفرسان. ما الذي دهاني هناك يا تُرى؟ ولماذا نظرت إليها ولم أنظر إلى غيرها، والجميلات في المدينة كثير؟ ومن بين كل النساء، يتعلق فكري بأميرة! هل نسيت أنِّي لا زلت عبدًا؟ أم أن تدريبات الفروسية قد عظمتني في نفسي؟ يجب أن أُخرِجَها من رأسي وأعود للتركيز على حياتي؛ يجب أن أصير فارسًا من فرسان شُريقة النبلاء لكي أنال حريتي كما وعدني القائد كيت، عَلِّي أجد في ذلك الحياة الهادئة التي لطالما حلُمت بها، ولم أنعم بها في أَمَّة الصحراء.

***

- علاما تضحكون؟

كان الحضور ينظرون لشيء ما خلف الإمام ابن فِراس، وهم يضحكون ويتغامزون، فنظر قاسم خلفه إلى مدخل الخيمة، فوجد الأميرة آيو واقفة مستندة على أحد عمودَيِّ الخيمة المضروبين عند مدخلها. احمرَّ وجه قاسم كأنه جمرة، وابتسم، وأخذ العرق يقطر من جبينه، وقال في تلعثم:

- منذ متى وأنت واقفة هنا يا أميرتي؟

- منذ الجزء الذي جعلتك تتسمر فيه.

انفجر الجميع ضاحكين، أمَّا قاسم فلم يزده الأمر إلا احمرار الوجه، وشارك الحضور ضحكهم.

- هل تريدين أن تجلسي؟

- بالتأكيد...لقد أعجبتني الحكاية، وخصوصًا أنها عني.

لقد قَسَمَتْ ابتسامتها التي تلت هذه الجملة حياء قاسم فغطَّى وجهه من الخجل، ثمَّ نظر إليها وهو يَحُكُّ لحيته في توتر وقال:

- لما لا تشاركيني القَصَّ، وتخبرينا عن حياتك...أميرتي الجميلة؟

- لك هذا يا فارسي النبيل.

جلست الأميرة آيو بجانب قاسم على أرض الخيمة متوسطةً الحلقة وبدأت تقص عليهم القصص...

***

الفصل الثامن:
الأميرة الصغيرة

مدينة شُرَيْقَة - خريف عام ١٣٩٩ ميلاديًا / ٨٠١ هجريًا:

قبل أن يتم تنصيب أبي ملكًا على كارمينيا، كان تاجرًا من أكبر تجار الحرير والأقمشة الملونة في كارمينيا، بل وفي بلاد بني الأصفر كلها؛ كان كثير السفر، وكان كثيرًا ما يذهب إلى بلاد العرب حيث كانوا أفضل زبائنه، وكان أحيانًا أخرى يقصدها بغرض الترحال؛ وفي إحدى سفرياته التجارية في بلاد العرب، فَقَدَ أبي أمواله وبضاعته إذ سطا عليهم قطَّاع طُرق في طريق عودته من مدينة الحكمة؛ لم يتركوا له دينارًا ولا درهمًا، ولم يذروا معه شيئًا؛ حتى ناقته لم يتركوها له ليحمل نفسه عليها، ولكنهم أذِنوا له بالعيش خوفًا من انتقام شعبه، فاضطر للسير مسافاتٍ طويلة علَّ الإله يهيء له من أمره مِرفَقًا.

بلاد الروم هي بلاد نصرانية الديانة، ولكن بعد الانقسام العظيم الذي حلَّ بها، ذهبت كل مملكة من ممالكها الثلاثة إلى مذهب ودين مختلف، فظلت إنجينيا على دين النصارى، وذهبت سيدينيا إلى عبادة الصُّدْفَة ومذهب أن لا إله، وذهبت كارمينيا إلى عبادة أضواء السماء.

لم يكن أبي على أي دينٍ من الأديان المنتشرة في كارمينيا والتي كانت

كثيرة مع غلبة عبادة أضواء السماء فيها، فقد كان لا يعير الدين اهتمامًا ولا انتباهًا؛ كان يؤمن بالأسباب وحسب -كما الحال في سيدينيا؛ فقد كان اختيار الأديان في كارمينيا اختياريًا ليس فيه إكراه ولا إجبار- ولكن إذا حلت المصيبة تضرع للكواكب والنجوم في جوف الليل طالبًا منها الرشاد والعون والمدد كما يفعل أهل كارمينيا، فالمرء على دين خليله.

لم يكن من وقت أنسب للالتجاء لهذه الآلة المزعومة من هذا الوقت العصيب: في أهلٍ غيرِ الأهل، ووطن غير الوطن، وفقدان المال؛ لن يهتم هنا أحدٌ لموتك، ولن يأتي من بلادكَ أحدٌ لنجدتك، بل لأخذ القصاص لك فقط، فكيف لهم أن يعلموا أنَّك واقع في محنة، وهم بعيدون عنك مسيرة خمسين يومًا. لم يكن له من بلاده تذكرة سوى هذه النقط المضيئة التي تشترك في رؤيتها كارمينيا وبلاد العرب على حدٍ سواء.

- يا آلهتي العظيمة...إن كنت تسمعينني -وأعلم أنه عسير أن تسمعينني بغير بوق ندائك القابع في برج المَلِك في كارمينيا، فأنت بعيدةٌ عنَّا- فأرجو منك أن تنجديني من هذه المحنة، وأن ترديني إلى وطني سالمًا آمنًا، وأن تعوِّضيني عما أُخِذَ مني من مال وعير، وكيل غير يسير، وصحب كانوا نعم الأصحاب، ماتوا جوعًا في الصحراء، واختارتني الأقدار لأصل لهذه النقطة من الزمان والمكان. اتضرع إليك بعظمتك، وجمال طلتك أن تساعديني إن كنت آلهة حقيقية، أمَّا إن كنت غير ذلك فأسأل إلهك -أو آلهتك- أن يُنجدني، فإنِّي على شفا حفرة من الهلاك.

لم يسمع جوابًا، ولم تأته علامة على أن أحدًا قد سمعه ممن في السماء،

وظن أنه تُرك وحده مخذولًا منبوذًا من أهل الأرض والسماء، وحَسِبَ أنَّ الموت لا شك لاحقه في هذه البلاد التي تأبى القرى ضايفته فيها بغير مال لأنه من بلادٍ غير بلادهم، بل ومن بلادٍ تكن العداء لهم، وإن أبدت غير ذلك.

ولا أجد لما حدث بعد ذلك كلمات معبرة وافية كافية، إلا أن استشهد بما علَّمَني قاسم من أشعار العرب:

ضاقت فلما استُحكِمَت حلقاتها

فُرِجت وكنت أظنها لا تُفرَجُ

كان أبي قد اتخذ رمال الصحراء فراشًا له وبطانة، واستسلم لِما ألَمَّ به وللنهاية التعيسة، حتى رأى الأمل من بعيد يلوح في الأفق. رأى قافلة مارة من بعيد تحمل رايةً زرقاء، وهو ما كان دلالة على أنهم من مدن ساحل بحر الروم؛ فقام يجري إليهم مهرولًا وملوحًا وهو يصيح بكل كلمات طلب النجدة والمساعدة التي وجدت؛ فالتفت القوم نحوه وتوقفوا لينظروا في أمره. وكان الأمر شائعًا أن تجد تائهًا أو منهوب الأموال في الصحراء، ولكن يجب أن تحترس، فالمحتالون كثير، والقانون لا يحمي المغفلين.

– من أنت يا هذا، وماذا حل بك؟

– أنا...سيدور: ابن وزير الحكمة والقضاء جادين؛ أنا من مدينة شافينيا: عاصمة مملكة كارمينيا. نُهبت أموالي في الصحراء، وتقطعت بي

السبل والأسباب، فهل أجد فيكم المُنجِد والمَلْجَأ؟

– اسقوه ماءً فالرجل يلهث وتكاد أنفاسه تنقطع، واحملوه لعل الله أن ينجدنا كما أنجدناه.

حملوا والدي إلى مدينة ساحلية تُسمَّى قُمرة، وكان قائد القافلة رجلًا شهمًا، كريمًا في أهله وقومه؛ ولقد أكرم أبي في الطريق، وما إن وصلوا إلى المدينة حتى أنزله منزلًا كريمًا في دياره، وأعطاه من الزاد والطعام ما يكفيه مؤنة العودة إلى كارمينيا، وتدبر له سفينة تقله. كان هذا الرجل هو الوحيد الذي برهن لوالدي على كرم العرب الذي لطالما ضُرِب به المثل، وكان هو إجابة دعائه الذي دعاه في تلك الليلة، فشكر والدِي آلهة السماء -المزعومة- وعزم على أن يعود مرةً أخرى إلى قُمرة ليشكر هذا الرجل الطيب جزيل الشكر.

في الحقيقة...لم يكن هذا هو السبب الوحيد لعودته؛ فلقد رأى أبي في مدينة قُمرة شيئًا آخر غير كرم هذا الرجل، وجمال المدينة؛ لقد رأى امرأة سحرت لُبَّه في بيت ذلك الرجل، فجال في خاطره أن يربط بين المملكتين: مملكة كارمينيا وبلاد العرب ليحلَّ السلام، وأن يُرضي حبه الذي استعر لها عندما رأى حُسن خلقها الذي ورثته عن أبيها، وعظيم جمالها المتأصل في بلادها، فقرر أن يتزوجها، وهو ما كان رأيًا محمودًا عند والده الذي رأى فيه رجاحة عقل، وخطوة سياسية عظيمة بين المملكتين.

تزوج أبي حسناء، والتي كان لها من اسمها عظيم النصيب، ومات

الملك الذي كان طاعنًا في السن ولم يكن له من وريث لعرشه، ولحقه جدي الذي أصيب بمرض عضال، فلم يكن للمملكة إلا أن يحكمها ابن وزير الحكمة والقضاء: سيدور بن جادين وهو ابن ثلاثين عامًا.

أتى تتويج أبي ملكًا بكل خير، فازدهرت المملكة تحت حكمه، رغم صغر سنه، وحداثة تجربته بالمُلك، ولكنه كان خبيرًا بأمور التجارة وأحوال الجيوش والبلدان، وكان رزين الحصاة، رشيد الأمر -تمامًا كجدي- وكان لا يُبرم أمرًا حتى يستشير وزرائه الأربعة -بدلًا من وزير الحكمة والقضاء فقط- وقام بصُلح مع بلاد العرب، وجعل التجارة بينهم شيئًا مألوفًا معهودًا، وتمَّ في ظَل حكمه اتسخلاص جزيرة كاملة من جزر سولين للتجارة فكان هذا هو أهم أسباب نماء التجارة بين مملكة كارمينيا وبلاد العرب، وغيَّر اسم عاصمة كارمينيا من شافينيا إلى شُرَيْقة بعد تأثره الشديد بالعرب ولغتهم، وكيف لا وقد سحرت لُبَّهُ عربية رُغم ما في بلاد بني الأصفر من شقراوات وحسناوات يزيغ لهن عقل الرجال، ولكنَّ أصالة الفَرَسِ عربية، وكذلك النساء.

- لقد أنجبت الملكة: حسناء زوجة الملك: سيدور -ملك مدينة شُريقة ومملكة كارمينيا- طفلة جديدة، وسيحتفل الجميع اليوم، وستقام الولائم على شرف سموه. فليحيا الملك...ولتحيا مملكة كارمينيا العظيمة!

عمّت الأفراح البلاد لمدة أسبوع كامل؛ ولائم في كل يوم وفي كل مدينة، ورقص وغناء، وعُلِّقت الزينة في كل ركن من أركان كارمينيا.

لقد كانت فرحة أبي وأمي بولادتي أشبه بفرحة عقيم قد رزقه الله الولد على كبر وامرأته عاقر. أختير لي اسم آيو نسبة إلى جدة أبي الكبرى، ورضيت أمي الاسم فهي كانت ترضى كل ما يرضاه أبي لحبها الشديد له، وهو ما كان إلا أن يرضيها فهو كان أشد لها حبًا.

كان لأبي خادم يُدعى ساكي، وكان يُرافقه منذ الصغر حتى بعد أن أصبحَ مَلِكًا. تزوج ساكي وأنجب فتاة تكبرني بعامين تُدعى سايا وكانت حسناء المنظر، رشيقة الجسد، مرحة الطباع حتى إذا بلغت العاشرة من عمرها أتى بها أبوها لتكون لي رفيقة كما كان هو لأبي.

- سيدتي الأميرة آيو! هل تسمحين لي بالدخول.

- عم ساكي! هل جئت لتحكي لي قصة جديدة؟ ها...أخبرني... أخبرني.

- لا، يا أميرتي الصغيرة، ولكني جئت لأخبرك أمرًا.

- وما هو ذلك الأمر الأهم من اللعب معي، يا عم ساكي؟

- هذه ابنتي جئت بها لتكون مرافقة لك في دروب حياتك، وتخدمك بكل ما تستطيع كما فعل أبوها مع أبيك الملك سيدور. إذا احتجت أي شيء فأخبريها، وهي ستلبي أوامرك.

اقتربت منها بهدوء، ثُمَّ سألتها ببراءة الأطفال التي كانت ظاهرة في عيني وبين ثنايا وجهي:

- ما اسمك؟

فأجابتني بصوت خافت مشوب بالحياء، وهي تنظر إلى الأرض احترامًا لمقامي، وتقديرًا لي، رُغم أنها تكبرني بسنتين.

- سايا.

- هل ستلعبين معي؟ فليس هنا أحد في القصر في مثل سني ليلعب معي.

نظرت إليَّ سايا باستغراب، مندهشة من فجأة السؤال وعفويته.

- بالطبع...سيديتي. سأنفذ أي شيءٍ تريدينه.

- إذًا فلنبدأ الآن باللعب! سأريك ألعابي.

جذبتُها من يدها وأنا أجري بمرحي المعتاد، وصوتي الذي يملأ جنبات القصر الملكي بهجة، ويدخل على ساكنيه السرور؛ وأصيبت سايا بعدوى جمال طفولتي ومرحها فأخذت تجاريني في الضحك والابتسام، ونحن نلعب ونجري بسعادة، فقد وجدت كل منَّا أنيستها التي تمنت، وجليسة لها من مثل عمرها، لا تمل لسماع قصصها عن لعبتها التي ضاعت، أو عصفورها الذي مرض، أو نبتتها التي ماتت، ولا تسأم اللعب معها بالعرائس والدمى، وتبادلها أخبار القصر، وتدبر معها المكائد اللطيفة للخدم، ثم تختبئان تحت السرير إذا اشتكى الخدم للملك سيدور من إزعاج الطفلتين لهم أثناء العمل؛ والملك سيدور لم يكن بالذي يعتزله الناس لظلم، أو إجحاف؛ فقد كان ملكًا عادلًا كريمًا ولا يُظلَم عنده أحد؛ ولو أن وزيرًا له ضرب بائعًا في السوق ظلمًا لجاء

بهما، وما أذن لهما بالأنصراف حتى يقتص الضعيف من القوي. هكذا هي الممالك العظيمة...تقام على أركان العدل، وتبنى على أسس الرحمة بالصغير والكبير والضعيف، وأخذ الحق من القوي للضعيف، وإعطاء أهل العلم وأصحاب السلطان قدرهم وإجلالهم.

كبرتُ بين جنبات القصر، ولم أكن كثيرة الخروج إلى شوارع المدينة، فقد كان أبي وأمي أشد خوفًا عليَّ من خوف الفراخ على صغارها. ولم يكن ذلك لأن المملكة تعج بالمخاطر أو أي شيء من هذا القبيل، فقد كانت مدينة شُريقة أكثر المدن أمنًا وأمانًا، وسخاء ورخاء في مملكة كارمينيا؛ ولكن الأمر وما فيه أنَّهم خافوا عليَّ من طمع الطامعين، والأشرار الذين هم بشرَّهم مُسرِّين؛ ولا توجد مدينة أو مملكة تخلوا من أمثال هؤلاء، حتى وإن دجَّجْت الطرقات بالجنود المسلحين، وأقمْتَ المحاكم، ووضعتَ القوانين.

لم يكن ذلك بالأمر الجيد بالنسبة لي -أو لأي طفلة بشكل عام- فليست السلامة هي الشيء الوحيد الذي يحتاجه طفلٌ في مثل عمري، فبالرغم من كوني استمتع باللعب مع سايا إلا أننا كنا نحتاج للمزيد من الرفقة لِتَسْخُنَ أجواء اللعب تارة، وليحتدم الحديث والنقاش حول مواضيع تهمنا، ولنسمع قصصًا جديدة عن العالم خارج أسوار الذهب والفضة والخضرة التي تحيط بنا من كل مكان. لم أكن لأطيق العيش على هذه الحال لطوال حياتي، فكان لا بدَّ لي من أن أواجه أبي...

- أبي...هل يمكنني أن أتحدث معك قليلًا في أمر ما؟

– أجل يا حبيبة أبيك...ما الأمر؟

– إنِّي قد صرت شابة في الخامسة عشر من عمري، وليس لي أصدقاء سوى سايا -ونِعْمَ الصديقة هي- ولكن تخيل ألا تملك إلا صديقًا واحدًا وأنت في مثل هذا السن...

– إنه لأمرٌ صعب حقًا.

– أجل...وأنا أيضًا لم أرَ العالم بالخارج. كل ما أعرفه هو ما تحيط به هذه الأسوار، حتى كدت أنسى أن هناك عالمًا آخر غير هذا القصر.

– هوني عليك يا عزيزتي الصغيرة. كل ما في الأمر أنني ووالدتك نخاف عليك أن تتأذي بالخارج، أو أن يصيبك مكروه؛ وهنا نحن نكفيك كل شيء، ونأتيك بكل ما لذ وطاب واشتهت له نفسك وتقرُّ به عينك.

– ولكن يا أبي لا شيء يغني عن المعرفة...أنت علَّمتني هذا؛ وأنا لا أعرف عن العالم إلا هذا القصر وأسواره.

– حسنًا يا صغيرتي لا تبكِ...ما رأيك أن تذهبي مع سايا وساكي إلى وسط المدينة غدًا صباحًا؟

– سيدور!

– انتظري يا حسناء.

– حقًا يا أبي؟

- ولكن بشرط؟

- ما هو؟

- سأرسل معك حراسة مشددة، ولن تفارقيهم إلى أي مكان، ولن يدخلوا بك إلى زحام، أو ميدان عام...هل يروق لك الأمر؟

- أجل...أجل...شكرًا لك يا أبي...أنت أفضل أب قد تحظى به فتاة، وأفضل ملك قد تحظى به كارمينيا.

طبعت على خد أبي قبلة والفرح يغمرني، وهرولت إلى غرفتي لأزف الخبر السار إلى سايا.

- أنت تدللها كثيرًا يا سيدور.

- إنها فتاتنا الوحيدة يا حسناء، ولا تقلقي، سآمر الجنود أن يبقوا متيقظين، وسآمر ساكي ألا يرفع عنها عينيه.

- ليتني كنت ابنة سيدور بدلًا من آيو، لم يدللني أبي مثل ما تفعل بها، ولم يأذن لي بالخروج من البيت كثيرًا، فقد كان يخاف عليَّ كما يخاف تاجر اللُّؤلؤ عليه.

خرجنا أنا، وسايا، وساكي الذي يمسك بحصاني العربي الأصيل الأبيض -والذي كان سريعًا جدًا، حيث أفنيت جُلَّ وقتي في تدريبه وترويضه، وتعلم السباحة- وخمسة من جنود القصر.

فُتِح باب القصر، ولأول مرة رأيت ما ورائه، بعد ما كان ذلك الأمر

لغزًا محيرًا بالنسبة لي لمدة طويلةٍ هي حياتي.

– إلى أين تريدين أن تذهبي...سيدتي الأميرة؟

سألتْني سايا، والتي كانت قد عانت من بقائها في القصر لمرافقتي، فشاركتني كل شيء حتى عدم الخروج من القصر.

– لن تذهب الأميرة إلا إلى حيث أمرني الملك.

– ساكي أيها الرتيب.

همست ممتعضة من قوله ذلك متسلطًا. لا أريد أن أسير وحولي عديد الجنود يحرسونني؛ أريد أن أكون كباقي الناس حرة...أسير حيثما أريد، ووقتما أريد.

– سنذهب أولًا لرؤية القصور الأربعة لوزراء الملك، ثم سنزور قصور رؤوس المثلثات الذهبية، وسنذهب في جولة إلى حديقة الأحصنة لرؤية عرض للأحصنة النبيلة الأصيلة...

– ما كل هذا الكلام عن القصور والنبلاء؟ أنا أريد أن أذهب إلى الأماكن المزدحمة لأرى عامة الناس، والحياة في المملكة.

– لن يكون، يا سيدتي الأميرة. أنا المسؤول هنا بتخويل الملك لي، لن يكون إلا ما أراه. ولقد سمعتي أوامر الملك بأن نتجنَّب الأماكن العامة.

– حسنًا سيدي القائد.

قلتها باستخفاف، ثم سكت لبرهة...

- ما هذا المكان هناك؟

- إنه السوق.

- السوق! كيف يبدوا...أريد أن أراه.

- مستحيل؛ إنَّه أخطر مكان بالنسبة لك سيدتي الأميرة.

- آخ منك يا ساكي...هل تظنني خرجت لكي أشاهد القصور والأحصنة التي أرى أفضل منها في القصر كل يوم؟

- آسف سيدتي الأميرة ولكنها أوامر الملك.

- حسنًا...دعني أركب حصاني إذن، فأنا متعبة من السير.

- تفضلي أيتها الأميرة.

- أيتها الأميرة! أنتظري! أنتظري! ألحقوا بها...هيا بسرعة.

هربتُ بالحصان من الحراس، والذين كانوا قد خرجوا رجالًا غير ركبان، فسهل هذا عليَّ الهرب. اتجهت إلى السوق. لن يقيدني أحد...لن يمنعني أحدٌ من رؤية العالم...ما عدت آيو الصغيرة، ويجب أن يفهموا هذا.

وصلت إلى أحد أسواق المدينة. كان كل مثلث من التشكيلات المثلثية التي تكونها أبنية المدينة يحتوي في منتصفه على سوق ضخم يسد الاحتياجات التجارية لسكان هذا المثلث. كان السوق أشبه بنهر دائري من الناس يجري في الأرض، وعلى ضفتيه العديد من الحوانيت

مختلفة البضائع، والإنتاجات. يشكل السوق شكلًا حلقيًا في منتصف المثلث بقطر ثلاثة فراسخ تقريبًا، والناس يسيرون بين الحوانيت ينقلون أبصارهم بينها، وينقبون عن حاجاتهم.

مشيت بحصاني الأبيض الملفت للأنظار في وسط حشود المتسوقين، فرمقتني بعض النظرات؛ ليس فقط بسبب حصاني الأبيض جميل الطلة، فخيم المشية، بل بسبب ملابسي المترفة، ووجهي الذي يبدوا عليه أثر النعمة؛ ولكنهم سرعان ما سحبوا أنظارهم عني وأعادوها إلى الحوانيت وبضاعاتها. لربما شكوا أني من عائلة أحد الوزراء، أو النبلاء، أو لربما الملك نفسه، ولكنهم صرفوا النظر عن ذلك، وقطعوا ظنهم بظن مثله أني لربما فتاة من عائلة ثرية وحسب، فأبناء النبلاء والوزراء -وبالتأكيد عائلة الملك- لا يسيرون بدون حرس وخدم؛ ناهيك عن أنهم لم يكونوا يعرفون شكل الأميرة آيو، فهي لم تخرج من قبل، ولم يدخل إليها أحدٌ من العامة.

- ها هي هناك!

- يالا المصيبة! ماذا أفعل.

تركت حصاني مربوطًا في إحدى عواميد السوق المظلل بقماشة طويلة ممتدة على طوله، واختلط بالعامة كي يسهل هروبي من أيدي الجنود. لم يكن الأمر صعبًا أن أهرب من قبضة خمسة جنود، أمَّا عشرين!، فهذا كان أكثر صعوبة. لم يكد الجنود يصلون إلى السوق، حتى صاحوا في الجنود المنتشرين في السوق -للحفاظ على النظام والأمن فيه- أن امنعوها من

الهرب ولكن لا تقيدوها أو تمسكوها بعنف فهذه الأميرة آيو.

همهم الناس في جلبة:

- الأميرة آيو!

- أنظروا إنها الأميرة آيو ابنة الملك سيدور!

- تعالي أيتها الأميرة. لقد خيبت ظني فيك، وأنا متأكدٌ أن والدك سيوبخنا بشدة، وسيمنعك من الخروج مجددًا.

- دع يدي يا ساكي أنت تؤلمني.

- كفاك ألاعيبًا أيتها الأميرة. لن أحتمل هروبك مرة أخرى وأن يصير التوبيخ عقابًا من الملك. لقد جعلتِ مني أضحوكة أمام الجنود.

- أين كنتم حين هربت؟ أخرجتم معها لتتنزهوا أم لتحموها وتراقبوها؟

- سيدتي الملكة...لقد باغتتنا.

- كيف لفتاة في الخامسة عشر من عمرها أن تخدع خمسة جنود من خيرة جنود القصر، ورفيق الملك، وابنته؟

- أهدأي، يا حسناء. انظري للأمر بعين أخرى، فابنتنا أدهى من ستة رجال.

- أتضحك يا سيدور؟ إنَّ ابنتنا كادت أن تضيع. إنها لم يسبق لها أن خرجت من قبل، وهي لا تعلم عن طرقات المدينة شيئًا.

- لا تقلقي...عيوني في كل مكان في المدينة. لم أكن لأطمئن على ابنتي حتى في رفقة خمسة حراس ورفيقي وحسب. وأنت يا ساكي...ظننتك أكثر حرصًا، ولكن يبدوا أنك قد كبرت في السن، وصرت عاجزًا عن الاهتمام بالشباب؛ ولكن كيف لابنتك أن تخدَع بكهذه حيلة؟ إنها رفيقة آيوا، وعاشت معها الصبا، فكيف لها ألا تعلم ما نوته آيو بحكم الأُلفَة؟

- لا أعلم يا جلالة الملك، ولكن يبدوا أنها قد دبَّرت معها هذه المكيدة. لا تقلق يا سيدي سأعاقبها بشدة.

- لا...لا تفعل؛ وبخها، ولكن لا تؤذها، فهي صديقة ابنتي ورفيقتها، ولقد مرّ الأمر بسلام.

- حسنًا...سمو الملك.

- أيها الحاجب! أدْخِلْ لي أميرتي الصغيرة آيو.

لم أرَ أمي غاضبة يومًا بهذا الشكل، ولم أعهد نظرة القلق تلك على وجهها من قبل. ظننت أني سأتلقى أيضًا توبيخًا حادًا من أبي كما فعلت أمي، ولكنه جلس في هدوء يستمع إلى توبيخ أمي لي، ثم هدَّأها وأدخلها غرفتها لتسكن فورة غضبها، ثم دنى مني وكلمني.

- صغيرتي...لِمَا فعلت هذا؟ ألا تعلمين أنِّي وأُمُّك سنقلق عليك؟

- لم أعد صغيرة بعد اليوم يا أبي...لقد كبرت وصرت في الخمسة عشر. لا أريد أن أكون حبيسة هذا القصر طوال حياتي.

- لا تبكي يا صغيرتي...كل ما في الأمر أننا نخاف عليك أن تختلطي

بالعوام فيؤذيك أحد الكارهين، أو الطامعين.

- لقد أرسلت معي خمسة حراس، فلماذا تقلق عليَّ بعدها؟ من ذا الذي يقدر أن يؤذيني من العوام في حضور حرس المَلِك؟

- حسنًا عزيزتي...لديك حق. ما رأيك أن نجرب ثانيةً؟

- أتقصد أن أخرج مرة أخرى؟

- أجل...وإلى السوق وغيره من أماكن مزدحمة...ولكن بشرط؟

- وما هو؟

- سيكون معك خمسة حراس، وسايا، وستكونين تحت أنظار باقي حرس المدينة، فلا تحاولي الهرب مرة أخرى. أيروق لك الأمر؟

- أحبك يا أبي.

استمر الأمر على هذا المنوال: أخرج مع سايا في ساعة الظهيرة مظللة بما يحجب الشمس عن رأسي، ومحاطة بخمسة جنود، ويرقبني جنود المدينة المنتشرين في كل مكان. كان الأمر في البداية غريبًا، فأنا كنت خجولة لا أحب أن يحدق بي الآخرون كثيرًا، أو أن أكون محط انتباه المكان وحسب، وكان هذا يشعرني بالقلق والتوتر، وآلام في المعدة، ولكن سرعان ما اعتدت الأمر، وقد كان أفضل من بقائي في القصر.

رأيت أماكن كثيرة لم أكن أعلم بوجودها غير السوق، كحديقة سرايا على أطراف المدينة، والتلة الخضراء، وغيرهما. لقد خَبرتُ المدينة

وأهلها، وألِفوني وألِفتهم، وصرت أحضر الكثير من الأحتفالات، والمناسبات العامة في المدينة مع أبي، وأحيانًا وحدي؛ ولم يكن شيء يستهويني كركوب الخيل ورؤيته، فذهبت مرة إلى معسكر فرسان شُريقة، فأعدوا العدة لاستقبالي، وجهزوا فرسانهم لتقديم عرضٍ فني بخيولهم وأسلحتهم لأمتاعي وإبهاري.

بدأ الفرسان العرض بتحية لعلم كارمينيا، فكان أحدهم ممسكًا به، وهو يتهادى بفرسه وباقي الجنود يقفون في تشكيلات منظمة ويرفعون أيديهم للأعلى إذا مرَّ من أمامهم، ثم بدأوا يتحركون بخيولهم في مشيات متخايلة، ويمرون موازين لمقعدي في مدرجات ساحة العرض رافعين أيديهم اليمنى مبسوطة الكف إلى السماء تحيةً لي.

استل الجميع سيوفهم وبدأوا العدو بأحصنتهم ليظهروا كل ما لديها من مهارة وبراعة، ويبدوا ما لديهم من تمكن في التحكم بالسيوف والأحصنة، في أثناء أنهم كانوا يلبسون دروعًا تثقلهم وتغطيهم بالكامل. كانت مهاراتهم لافتة للانتباه، وتجذب الأنظار، ونظام كتائبهم شيء يدعو المرء لأكباره، ولا يملك ألا أن يسحب نفسه من مقعده واقفًا ليصفق لجودة فروسيتهم.

نزلت إلى ساحتة العرض، بعد أن فرغوا من عروضهم الفروسية، لأتحدث معهم ولأحييهم، فكانوا يتقدمون واحدًا تلو الآخر، وينحنون لي احترامًا كما تستحق كل أميرة، ولكن أحدهم أبى أن ينحني لي كما البقية.

- لماذا لا تنحني أيها الفارس؟

- أنا مسلم يا سيدتي، والمسلم لا يركع إلا لله.

- الله! من الله؟

- ربِّي وربُّك، يا سيدتي؛ الذي خلق السماوات بغير عمدٍ ترونها، وجعل فيها بروجًا، وسراجًا، وقمرًا منيرًا.

- يبدوا لي من هيأتك أنك عربيّ

- أجل سيدتي، أنا من مملكة سولين.

- وكيف وصلت إلى كارمينيا، وكيف أصبحت فارسًا؟

- هاجرت للعيش في مدينة الحكمة بعد الطوفان العظيم في سولين، ثم تم الغدر بي وبيعي في سوق الرقيق هنا في كارمينيا، واشتراني القائد المحترم: كيت الذي رأى فيَّ مهارات الفرسان، فدربني لمدة عامًا في مقر تدريب فرسان شُريقة، ثم صرت واحدًا منهم بأمره، يا سيدتي.

- لقد أثرت فضولي أيها الفارس...ما اسمك؟

- قاسم، يا سيدتي.

- قاسم...أليس هذا يعني الذي يفصل بين شيئين في العربية؟

- أجل، سيدتي.

- سررت بلقائك أيها الفارس النبيل: قاسم.

أنصرفتُ وتركت مقر التدريب وقاسم والفرسان واقفين في ساحة العرض، ولكني لم أنفك عن التفكير فيه وفيما قال. أخذت طوال الطريق أفكر في هذا الموقف الغريب الذي لم أتعرض له يومًا؛ لم يسبق لأحدٍ من قبل من الرعية أن رفض الإنحناء لي، ناهيك عن أن يكون فارسًا من فرسان المدينة؛ ثم كلامه...إنَّ ما قاله وقع على قلبي وقعًا عظيماً، وتفتَّح له عقلي، وأنصتت له أذني. تلك الشجاعة في عينيه...من أين أتى بها وهو يكلم ابنة ملك كارمينيا وقائد جيوشها؟ ألم يخف أن آمر به فيسجن أو يُقتل أو يكونَنَّ من الصاغرين، وأنا على ذلك قادرة؟ هل هيا شجاعة العرب التي كثيرًا ما سمعت عنها من والدتي، أم أنَّها ثقة زائدة تنم عن طيش زائد عنده؟ ولكن لا؛ لا يمكن لمن مثله أن يكون طائشًا؛ لقد كان يملك ردًا لكل شيء، وكانت عينيه تستحي أن تطيل لي النظر، لست أدري أَلِمكانتي؟ أم يخاف أن يُفتَن بجمالي الذي لطالما حدق فيه الرجال وطمعوا فيه، حتى بالرغم من احتشام ملابسي؟ يجب أن أجد إجابات لهذه الأسئلة الكثيرة المؤرقة...يجب أن أتحدث معه ثانية، فهو وحده يملك مفاتيح هذه الأقفال.

***

الفصل التاسع:
من الظلمات إلى النور

مدينة شُريْقة - ربيع عامِ ١٤٢٠ ميلاديًا / ٨٢٢ هجريًا:

الفارس النبيل: قاسم...

أرسلتُ إليك هذه الرسالة سرًا كي لا يصير الأمر رسميًا، فأسبب لك المشاكل. لقد أثرت فضولي بعد لقائنا الأول في معسكر فرسان شُريقة، فأردت أن أعرفك أكثر عن قرب، وكنت أريدك أن تعلمني قليلًا عن الثقافة العربية والإسلامية، فلقد طفتَ بلاد العرب من شمالها إلى جنوبها، فلا أحسب أن أحدًا أعلم بها منك.

وجدت أنَّه من غير المهذب أن أكون من يوجه الأسئلة دائمًا، فأنا وإن كنت أميرة إلا أنَّني أميرة خلوقة، لذلك سأخبرك قليلًا عن نفسي.

أسمي هو آيو ابنة سيدور بن جادين، وأمي هي حسناء بنت مقداد وهي من بلاد العرب...مثلك. أنا في مثل عمرك تقريبًا، ولدت هنا في شُريقة، وفي فمي ملعقة من الذهب، وحولي الخدم والحرس؛ لم أشكوا يومًا من فقر ولا فاقة، ولم أواجه صعوبة في حياتي على الإطلاق. لكن لا تتسرع في الحكم عليَّ، فأنا لم أحب أن أكون فتاة مدللة لا تتقن شيئًا؛ لقد تعلمت السباحة وركوب الخيل، وأنا فنانة ماهرة بالريشة والألوان -إن

أردت، يمكنني أن أرسل لك إحدى لوحاتي- وخَبُرت طباع الناس، وصرت أعلم كيف أفرق بين الجيد والرديء منهم.

في البداية لم يكن لدي الكثير من الأصدقاء، وكنت أقضي الليل وحيدة في وسط ألعابي الصماء الكثيرة، وحول غرفتي عديد الخدم؛ لقد بكيت كثيرًا، ولكنِّي لم أكن أحب شفقة الناس، لذلك لم أكن أصدر صوتًا أثناء بكائي، فكنت أبكي حالي بدموع صمَّاء؛ ولكن كل هذا تغير حين أتت صديقتي ومرافقتي سايا؛ إنَّها نعم الصديق والرفيق، نحن متشابهتان كثيرًا في الطباع وإن اختلفنا في الشكل. ستألفها إذا جالستها فهي لطيفة تألف وتُؤلف.

الآن أخبرني بعض الأشياء عنك، فيبدوا أنَّك قد حظيت بحياة مضطربة ذات قصص مشوِّقة. لقد علمت عنك بعض الأمور من زوجة القائد كيت، ولكنِّي أريد أن أعلم المزيد حتى أتعرف أكثر على ذاك الفارس الذي أبى الإنحناء لي. أريد أنْ أسألك أيضًا عن بعض الأشياء التي قلتها لي هناك في المعسكر عن الله: رَبِّ السماوات والأرض، ورَبِّ المشرق والمغرب. لقد أثرت في نفسي شيئًا كبتُّه منذ سنين حول أحقية أضواء السماء بالعبادة والألوهية، فأرجو أن تخبرني بما يشفيني من حيرتي ويذهب عني شكي وشتات فكري.

الأميرة محبة الخيول: آيو.

***

خرجت في نزهة اعتيادية مع سايا وبعض الحرس، ولكني استأذنتهم

في الذهاب مع سايا إلى الخلاء، ولكني بدلًا من الذهاب هناك، ذهبت أنا وسايا لصبيٍّ صغير كانت تعرفه سايا من قريب لها يوصل الرسائل. أعطيته نقودًا مقابل أن يوصل رسالةً إلى بيت قاسم على أمل ألا يخون الأمانة، وألَّا تضلَّ الرسالة الطريق.

***

– أكمل أنت، يا قاسم؛ فأنت ستكون أفضل مني في هذا الجزء.

– حسنًا، أميرتي...سأفعل.

***

كنت قد حصلت على حريتي من العبودية بعد ما صرت أهلًا لأن أكون فارسًا نبيلًا، وكان هذا الاتفاق الذي عقده معي القائد كيت. لا أعلم لماذا كان يهتم لأمري لهذا الحد، ولماذا أرادني أن أصير فارسًا وأنا لست من شُريقة أو كارمينيا حتى، وفرسان شُريقة كثير؟ ولكن لعلَّها عناية الله، بيده قلوب العباد يقلبها كيف يشاء، ولعلَّ الله أن يأتيَني باليُسْرِ بعد العُسْرِ.

عدت لبيتي بعد أسبوع من المكوث في معسكر الفرسان، حيث كنت أبيت أسبوعًا في المعسكر، وآخرَ في بيتي؛ كان هذا البيت هدية لي من القائد كيت؛ صحيح أنّه لم يكن بالبيت المرفه أو الكبير، إلا أنَّه كان كهفي الذي آوي فيه. صعدت إلى سطح المنزل لأتأمل في سماء كارمينيا الأخَّاذة، ثم غصت في نومٍ عميق، ورحت أحلم بسولين وبحرها،

وبأبي ونحن نصطاد معًا ثم نعود لأحكي لأمي عن صيدنا؛ ورأيت الإمام وبياض لحيته، وهدوء وجهه الذين أورثهما لي مع علمه، وزادني عليهما بمسحة من الحزن في عيني يعرفها كلُّ من يراني. لم يقطع عليَّ نومي سوى نداء خافت جائني من الأسفل كان مثل الهمس.

- سيد قاسم...سيد قاسم.

قمت من نومي فزعًا فأمسكت سيفي، ثم نظرت إلى الأسفل، فوجدت صبيًا صغيرًا يلف حزامًا بُنِّيًا حول خصره، ويرتدي سراويل مرفوعة فوق كعبيه قيد شبر.

- من أنت يا غلام؟ وماذا تفعل هنا في هذه الساعة من الليل؟

- هل أنت السيد: قاسم؟

- أجل!

- معي رسالة لك.

- رسالة! ممن؟

لم أعتد أن أتلقى رسالة من أحد منذ أن جئت إلى كارمينيا. لربما هو السيد كيت، أو أحد أصدقائي القدامى من الخدم في القصر. نزلت إليه، ثم أخذت منه الرسالة وقرأت ما فيها بعد أن أكرمت الصغير بنصف يوكا، ثم مضى في طريقه. كل ما في الرسالة كان مدعاة لإندهالي... بداية من الاسم عليها -محبة الخيول- حتى كل الكلمات والأسئلة التي في ثناياها، وحقيقة أن المرسلة ليست فتاة عادية، بل هي أميرة شُريقة

وكارمينيا كلها: آيو.

لم يجذبني اهتمامها بالثقافة العربية -والتي أشك أن يكون هذا هو المغزى من وراء رسالتها، فأُمُّها عربية، وأجدر أن تعرف منها ما تريد- بل ما جذبني هو اهتمامها بالمعرفة عن الله، وعن الإسلام...وعني.

أهل كارمينيا هم شعب ذو صناعة وحرفة وحضارة؛ يجيدون علم الخيمياء بامتياز، فلا تسبقهم فيه الأمم، ويصبغون الملابس المغزولة آنفًا في بلاد العرب، ثم يبيعونها لهم بثمنٍ أغلى؛ وعندهم تقدم في البناء عظيم شأنه، شامخ بين المدائن قدره؛ ومع كل ذلك فهم أمَّة جاهلة بربها، وعالمة بدنياها، وما علمها إلا قليل.

إنَّ مثلي ومثلهم كمثل هدهد نبي الله سليمان -عليه السلام- إذ عجب من قومِ سبأ ذوي الحضارة التي تذهل لها العقول، وأوتوا من كل شيء، ولملكتهم عرشٌ عظيم؛ ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

عزمت على أن أجيب رسالتها، وأن أمدها بأي معلومات تريد عن بلاد العرب، والإسلام...وعني حتى، كي لا تظن بي الغموض، فتوجِسَ منِّي خيفة، فالناس أعداء ما جهلوا.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

جلالة الأميرة: آيو...

اسمي هو قاسم بن فِراس بن جوديّ؛ أخبرتك في المعسكر عن اسمي ومكان ولادتي، ولكنِّي لم أخبرك عن تفاصيل قصتي.

أبي كان كبير تجار السمك في جزيرة المهاجرين في سولين، والسمك في سولين كصباغة الملابس في كارمينيا. كنت قد عشت في بلهنية ورغد من العيش فترة من الزمن، حتى ماتت أمي فنغَّص فراقها عليّ طعم الحياة وملاذها؛ لم يطل الأمر كثيرًا حتى لحق بها معلمي الإمام ابن صخر، وأبي...والذي مات في طريق هجرتنا إلى مدينة الخطيئة المسماة بمدينة الحكمة.

عشت في تلك المملكة المشؤومة لسبع سنوات عملت فيها في بيع ما يغزلاه جدِّي وجدتي، وعاملًا في متجر لتاجر سجاد كبير هناك -رجلٌ لا بارك الله له- وفتيانه فتية سوء إلا واحدًا فيهم يُدعى سُهيل لا زلت أبكيه حتى اليوم، فلقد باعوني وإياه إلى تاجر عبيد في قرية تُدعى العِزَّة ذقنا فيها الذِّلة، ثم فُرِّقَ بيننا عند شجرة وبئر في قلب الصحراء...رحم الله سُهيلًا حيثما كان وكيفما يكون.

اشتراني هنا في كارمينيا القائد كيت؛ وأُعجبَ بما لدي من مهارت علمنيها أبي كركوب الخيل والسباحة والرمايَة، فآثر القائد كيت أن

يهبني لجيش كارمينيا بدل أن يسخرني للعبودية في قصره في غسل الأواني، وقص العشب.

حقيقةً...لم أحتج لصاحب هنا في كارمينيا -وإن كنت قد حصلت على بعض المعارف في قصر القائد كيت، وفي معسكر الفرسان، ومقر تدريبهم- وهذا لأنني لا أشعر بوحدة رغم عيشي في بيت وحيدًا. لربما هو الأنس بذكر ربي، ومعرفة أن هناك من هو أقرب إليَّ من حبل الوريد ومطلع عليَّ، وربما لأنني عاصرت كثيرًا من حياتي في وحدة وعصامية. إنِّي إذا أردت أن أكلم ربي قمت فكبرت مصليًّا، وإن أردت أن أكون المستمع له -سبحانه وتعالى- أقرأ القرآن: كتاب الله المُنَزَّلِ على نبيه محمد ﷺ.

سأرسل لك نسخة من المصحف غير التي معي كنت قد اشتريتها من تاجر عربيٍّ وصَّيته أن يحضرها معه في رحلته القادمة للتجارة إلى كارمينياً، وأوفى بوعده. لست أدري لماذا أشتريت نسخة أخرى من المصحف غير التي سبق واشتريتها، ولكنِّي ظننت أنها قد تفيدني أو غيري يومًا ما، ويبدوا أنه قد حان وقت استخدامها.

قد يصعب عليك فهم القرآن لبعدك عن أصيل اللغة العربية، ولكني سأحاول أن أؤيدك بكل ما أوتيت من معرفة وعلم، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم.

أمَّا فيما يخص الثقافة العربي، فلست أدري من أين أبدأ، ولست أدري ما تعلمين وما تجهلين عنها، فأطلب من سموك أن تكوني أكثر تحديدًا.

يمكنك أن تناديني قاسم -فقط- بدون استخدام لقب الفارس النبيل، فأنا أحد جنود المملكة وفرسانها، وجلالتك أميرتنا.

وأجل... بالتأكيد أود أن أرى إحدى لوحاتك، سيدتي الأميرة.

فارسك المخلص: قاسم.

***

قاسم...

يمكنك أيضًا أن تناديني آيو بدون استخدام لقب الأميرة أو كلمات الإجلال والتعظيم: كجلالتك، وسموك، وسيدتي، وما إلى ذلك؛ لنجعل الأمر أقل رسمية في الخطاب.

وصلتني نسخة المصحف التي أرسلتها؛ إنه حقًا يحوي كلمات صعبة الفهم بالنسبة لي، ولكني استطعت أن أجاهد نفسي في قراءته، وفهمت كثيرًا من معانيه. إنَّ هذا الكتاب له أثر عظيم على من يقرأه. صرت لا أستطيع أن أصبح في يوم دون أن أقرأ منه، ولقد صرت أشعر بؤنس في قراءته، ولكني أريد منكَ مزيدًا من الشرح، وأنْ ترشدني فيه للأيات التي تتحدث عن أضواء السماء، وكُنهِهَا، فهذا ما يحيرني.

هذه إحدى لوحاتي؛ إنه المنظر الذي أراه من شرفتي في القصر كل يوم. أتمنى أن تنال إعجابك.

محبة الخيول: آيو.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

محبة الخيول: آيو...

وصلتني لوحتك الجميلة...لم تكوني تبالغين حين وصفت نفسك بالفنانة الماهرة في أول رسالة. أرجو أن أرى المزيد من لوحاتك لأعلقها على حائط منزلي الرتيب...بالطبع إن كان هذا لن يزعجك.

قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِه اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْس وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذي خَلَقَهُنَّ إن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ❋ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ)؛ والذين عند ربِّك: هم الملائكة الذين هم مخلوقات من نور، وليسو بذكور ولا بإناث، وإن أنَّثتهم اللغة إلا أن تأنيث اللغة للشيء ليس دليلًا على جنسه.

وقال تعالى: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ). إن الشمس والقمر والكواكب لهي مخلوقات من مخلوقات الله سخَّرها للإنسان لتخدمه بفوائدها، وإن كان لا يستطيع لها طولًا أو سبيلًا. إنَّه لمدعاة للسخرية أن يسجد الإنسان ويعبد ما سُخِّرَ له.

وقال تعالى: (وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ❋

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ). فكيف لما هو مغلوبٌ على أمره -فَلا يملكَ لنفسه أن يحيد عن فَلَكِه- أن يُعبَد ويُذَرَ الذي هو خالقهم وغالبٌ على أمره.

ألا إنَّ أكثرَ النَّاس لا يعلمون.

فارسك المخلص: قاسم.

***

قاسم...

لقد أريتني بعينيك الكثير، وبصُرْتُ بهذا الكتاب ما غفل عنه قومي، وما عَشِيْتُ عنه لسنين. لقد كفرت الآن بأحقية أضواء السماء في أن تُعبَد، ولكن أريدك أن تريني أحقية إله المسلمين في أن يُعبَد.

لم أفهم حجّة إبراهيم على قومه في سورة الأنعام، حين حاور من كانوا يعبدون بعض أنوار السماء مثل أهل كارمينيا، فهل لك أن تبين لي ما أستَبْهَم؟

ولدي سؤال آخر... إن كان الله هو الحق، فلماذا أنعم عليَّ بالمُلْكِ وأنا لا أعبده، وجعلك تفقد الغنى وتصبح عبدًا فقيرًا وأنت تؤمن به؟

هذه لوحة أخرى رسمتها خصيصًا لك لتعلقها في منزلك... أتمنى أن تكون جديرة بذلك.

فتاة الريشة والألوان: آيو.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

آيو...

مباركٌ لك...هذه أول خطوة...أن تكفر بما يُعبد من دون الله، أمَّا الآن فحان موعد أن ترفعي قدمك لتقومي بالخطة الثانية.

إن نبي الله إبراهيم عندما أتى قومًا يعبدون كوكبًا ثم آخرين يعبدون القمر، وغيرهم يعبدون الشمس، لم يعب عليهم شيئًا يصعب على عقولهم فهمه، ولكنه حاجهم بشيء بيِّن واضح، وصفة لا بد من توافرها في كل من أدَّعى الألوهية. لقد عبدواً هذه الأجرام الوهاجة في السماء لأنهم يرونها، واستعظموا بعدها وجمالها، وظنوا بها الظنون، ووضعوا لها الأسماء؛ ولكنهم أغفلوا شيئًا هامًا وهو أن ما عبدوه لأمكانية رؤيته يختفي في فترة من فترات اليوم، وهذا يعني أنه يأفل عن عابديه، ويغفل عن أمورهم وشؤون يومهم أو ليلهم، وهذا ما لفتَ إليه أنظارهم نبيُّ الله إبراهيم -عليه السلام.

إن الإنسان كائن ضعيف ناقص يحتاج لقوة أعظم منه ليُكِنَّ لها الولاء، ويتضرع إليها خاضعًا لتحميه وتهديه وترزقه. ما فائدة وجود إله يغفل عنك ساعة؟ هل أعطاك ضماناتٍ أنك آمن في تلك الساعة

من خطر الحياة؟ وهل ضمن لك رزقك فيها؟ وكيف يعطيك ضمانات وهو لا يستطيع أن يضمن لك بقائه معك طوال اليوم! إن هذا لشيء عُجاب!

إنَّ إله المسلمين قد حجب رؤيته عن عباده، فهو نورٌ أنَّى يُرى، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير؛ ولكنَّ الله قد ضمن لنا أنه معنا في كل وقت وحِينٍ يسمع ويرى، يعلم ما نُسرُّ وما نُعلِن، ومن توكَّل عليه كفاه، وهو يرزِّق كل دابة وكل كائن ومخَلوق. إذا أردت رؤية الله في الدنيا، فانظر إلى عظيم قدرته وتجلي اسماءه وصفاته في مخلوقاته؛ (فَانظُرْ إِلَى ءاثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ).

إنَّ الله ربٌّ كريم عظيم حفيظ...لا يترك عباده للصدفة والفرصة، ولا يَكِلُهم إلى غيره، إلا إنْ هم لم يرضوا أن يكون وكيلهم جهلًا منهم واستكبارًا، ولا يقود الجهل بصاحبه إلا لمجهول، ولا يفضي الاستكبار بأهله إلا إلى الهلاك.

هل قرأت قصة موسى وفرعون مصر؟

لقد أهلك الله فرعون ذي الأنهار التي تجري من تحته، والملك المبسوط حوله، ونجَّى موسى وبني إسرائيل، وهم الشرذمة القليلون المستضعفون في الأرض، وأورثهم الله الأرض من بعد أهلها.

يجب أن تعلمي -جلالة الأميرة- أنَّ هذه الدنيا لا تُساوي عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تساويها، لَمَا سقى الله منها كافرًا شربة ماء.

إنَّها دار اختبار وبلاء؛ إنَّها سجن المؤمن ومزرعته، وجنة الكافر ومتعته. لا يكون الجزاءُ إلا في يوم العدل المطلق، والحكم النهائي: يوم القيامة؛ فلا تغرنَّك الحياة الدنيا، ولا يغرنَّك باللهِ الغرورُ.

أتمنى أن نكون أنا ومنزلي جديرَيْنِ بأن نقتني هذا الفن الراقي الذي مسته، وأبدعته يَدَيْ الأميرة.

أشد المعجبين بلوحاتك: قاسم.

***

أشد المُعجَبين بفني: قاسم...

سلامٌ عليك ورحمة من الله وبركاته

قد علمت الآن ما كنتُ فيه من الغي والضلال؛ وكيف صدَّنا الشيطان عن رؤية شمس الحقيقة بالتضرع لشمس الصباح.

لقد حسمت قراري...أريد أن أدخل الإسلام، فهلّا تكون لي خيرَ معلم، وأول شاهدٍ على ولادتي الجديدة؟

أود أن نلتقي حتى تلعمني أمور العبادة والدين، فلقد علمت أن الإسلام مبنيٌّ عليها، لا على قول "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" باللسان وفقط كما تفعل أمي التي تعتنق الإسلام بلسانها وحسب.

أُرسِلُ إليك مزيدًا من لوحاتي، لعلّي أحظى بشرف أن يُعلَّق المزيد منها عندك.

أَمَةُ اللهِ: آيو.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

آيو: أمَةُ اللهِ، وأميرة كارمينيا...

وعليك السلام ورحمة الله وبركاته

لقد حسبت أني قد فقدت طعم الفرح بعد موت أبي وأمي وتَرْكِي لوطني، ولكنِّي وجدتها بمجرد أن قرأت رسالتك الأخيرة وعلمت قرارك بدخول الإسلام.

مباركٌ لك أميرتي، والحمد لله رَبِّ العالمين.

أنا مستعدٌ لأن أساعدك بكل ما أوتيت من علم، فقد أحسن الله إليَّ بأن يسَّر لي سُبُلَ العلم والدين، فسأحسِن كما أحسَن إليَّ -سبحانه وتعالى.

سأستمر في تعليمك عبر الرسائل وحسب، لا أستطيع أن ألتقي بك في مكان عام فذاك سيجلب لك خوض الخائضين، ولا نستطيع أن نلتقي فيٍ بيتي فذاك طريق ممهدٌ للشياطين، فسأرسل لك اسم إحدى الخادمات الأمينات حافظات الأسرار في قصر القائد كيت، والتي أسلمتْ على يديَّ مع مجموعة من الخدم والعبيد هناك، فيمكنك

أن تشتريها من القائد وتُعْلِمِيها أمرك وأخبريها أنِّي من أوصيتها بك، وستكون لك خير عونٍ ومرشد.

المزيد من لوحاتك...والمزيد من البهجة لي ولبيتي.

لقد صرت استيقظ كلَّ يوم في سعادة وسرور كلما نظرت إلى لوحاتك التي صار بيتي يكتنزها ًويحمل جمالها.

أتمنى ألا تنقطع رسائلك بعد أن وجدتِ من يعينك على الطريق، ويُفتيك فيما استبهم واستُشكِلَ عليك أمره.

فارسك الوفي: قاسم.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

مُعلِّمي: قاسم...

هل رؤيتنا لجمال القمر، تُنسينا فضل الشمس؟

ستستمر الرسائل بيننا، وسأستمر بإرسال لوحاتي لك. لقد صارت رسائلي إليك طقسًا أسبوعيًا أؤديه وأنا في قمة سعادتي، أرجو أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لك.

هل لي أن أخبرك شيئًا؟

لست أدري إن كنت ستظنه أمرًا يستحق أن يُذكر أم أنَّك ستستصغره

كما فعل أبويَّ وسايا.

لقد ماتت قطتي اليوم. لقد كنت متعلقة بها إلى أبعد حد. لست أدري كيف سأتجاوز هذه اللحظات، ولكنِّي أتمنى أن أفعل.

يرى أبويّ وسايا أنه أمرٌ عاديٌّ بسيط، وأنِّي يمكنني أن أشتري مائة قطة غيرها. ليتهم يفهمون أن الأمر ليس في جنس القطط، بل فيما أودعتُه من ذكرياتٍ في قطتي، وما تركَتْهُ من مشاعر داخلي. أتفهم قصدي؟

لا تشغل بالك كثيرًا بهذا الموضوع.

بدأت بالوضوء والصلوات الخمس كما علَّمَتْنِي غُفيْرَة، حتى أني قد بدأت أقوم الليل. لقد وجدت بالصلاة لذة جميلة كنت في غفلة عنها... فالحمد لله الذي هداني لهذا.

أصلي خفية بعيدًا عن الأنظار؛ لا أريد أن أواجه أبي الآن بحقيقة إسلامي؛ لست جاهزة للنقاش بعد؛ ولكن المشكلة ستكون في الحجاب الذي لا أعلم كيف أخفيه عنهم، فهو في الأصل لا بد وأن يظهر أمام الناس.

أنا في حيرة من أمري ولست أدري ماذا أفعل.

أَشِرْ عليَّ.

سآتي لأزور معسكر الفرسان الأسبوع القادم؛ أرجو أن أراك هناك.

آيو.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

آيو...

إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، أسأل الله أن يُجيرك في مصيبتك وأن يُخلِفَ لك خيرًا منها.

وددت لو أن أكون بجانبك لأواسيك في موت قطتك بدلًا من أن أزعم بأن كل القطط متشابهة، ولكن لعلي أفعل ذلك الأسبوع القادم حين نلتقي إن شاء الله.

إنَّ الحجاب لهو خطوة عظيمة في طريق المرأة المسلمة، وهو فرض لا بدَّ منه. في الحقيقة لن أستطيع أن أشير عليك إلا بعلمي، أمَّا التجربة في هذا الموضوع فأنا أفتقر إليها، ولكنَّ غُفيْرة بالتأكيد لديها الحل، فلقد مرَّت بما يشبه ما تَمُرِّين به الآن.

هذه هي المرة الأولى التي لا أشعر فيها بالغربة في كارمينيا؛ لقد بدأت أشعر أني قد وجدت وطني الحقيقي ومستقري.

أراك في المعسكر...سيدتي الأميرة.

فارسك المخلص: قاسم.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

قاسم...

عادةً ما أحكي لسايا عن أحداث حياتي...خصوصًا المثير والجديد منها، ولكنِّي لا أستطيع أن أخبرها عن لقائنا الآن، ولا حتى عن إسلامي؛ كل ما تعرفه هو أنِّي أراسلك لأتعلم منك بعض الأمور، أو هذا ما أقنعتها به، لست أدري إن كانت صدقتني أم لا. سأخبرها على أيَّةِ حال فهي صديقتي المقربة، ولكن لا أظن أني سأفعل ذلك الآن. أنا عازمة على أن أدعوها للإسلام...أليس الله قد أخبر نبيه في بادئ دعوته بأن يُنذر عشيرته الأقربينَ؟

لا أستطيع أن أحتفظ بالفرحة لنفسي، فأنا أميرة كريمة وأحب المشاركة؛ لذلك سأشاركك فرحتي بلقائنا وتفاصيلها...وإن كنتَ بالفعل تعرفها.

عندما جلست في مقصورتي لأشاهد العرض الفروسي، لم أحفل به كما فعلت في السابق، فليست الفروسية ولا الخيول ما جئت لأجله اليوم، بل أنت.

أخذت أقلب نظري بين الفرسان عَلِّي أجدك بين زحامهم، وأميزك بالرغم من دروعك التي تغطي جسدك كله من مفرق رأسك إلى أخمص

قدميك.

ها أنت ذا...وجدتك أخيرًا. لقد عرفتك من الشريطة الزرقاء التي تلفها حول عضدك الأيمن، والتي علمت منك أنها كانت لوالدتك في السابق...رحمها الله تعالى.

بعد انتهاء العرض الفروسيِّ ادَّعَيْتُ أنِّي أريد أن أذهب في جولة في الحديقة الخلفية للمبنى الرئيسي للمعسكر -والتي كانت خلابة- فأخذتك معي كمرشدٍ ومرافق، وأمرت حراسي وسايا أن ينتظروني في المقصورة. بدا الأمر مريبًا لهم في البداية، ولكنِّ بددت شكوكهم حين رأوا مني تهكمًا يعرفونه مني عندما أشعر بالضجر، فظنوا أني أحتاج لبعض الوقت مع نفسي، والفارس الذي سيصحبني -والذي هو أنت- لن يكون إلا كفزاعة في الحقل، حاشاك أن تكون فزاعة أيها الفارس النبيل.

تلك النظرة في عينيك عندما أخرجت من كم فستاني الفضفاض قماشة جميلة كانت كاللبنة التي يفتقدها حجابي، فوضعتها فإذا به كامل الأركان والبنيان. وكأني أرى نفسي في مرآة تزيد الناظر فيها جمالًا على جماله. وانطلقت شفتاك بكلمات من الشعر العربي:

الحُسْنُ منك قطعةٌ

والجمال، بك تزيَّنا

يا أميرةً لَمَّا تستَّرَتْ

انكشف منها نورها

لم أملك إلا الصمت وأحمرار الوجنتين، فاعتذرت لي عن جُرأتك وأخبرتني أنَّها عفوية شعراء العرب التي عُرفوا بها إذا رأوا جمال القمر في ليلة البدر.

وقد بّهرتّ فما تخفى على أحدٍ

إلا على أحدٍ لا يعرفُ القمرَ

أمضيت باقي وقت نزهتنا في الحديقة صامتًا، فأنكرت عليك ذلك، ولكنَّك بررت صمتك هذا بأن:

والصمت في حرم الجمال جمال

ثم عدنا إلى مقصورتي الملكية، وتبادلنا نظرات الوداع، والتي خفت أن تفضح مكنون قلبينا للعامة.

إليك لوحة للقائنا رسمتها من مخيلتي وأنا في شرفة القصر: مكاني المفضل.

أميرتك المخلصة: آيو.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

قاسم...

رسالة أخرى

لم أستطع أن انتظر حتى الأسبوع القادم لأخبرك بخبر أرتدائي للحجاب بالكامل أمام العامة، وعلم أبي بذلك، ولمَّا سألني عن ذلك، أخبرته بأني أشعر أن جمال المرأة يجب ألا يكون لكل الناظرين، بل هو لزوجها والأقربين ممن لا سبيل لهم للزواج بها، وهذا ما تعلمته من ثقافة المسلمين؛ وقد كان أبي يعلم أنِّي أحب تلعم الثقافات المختلفة.

على كلٍّ...لم أستطع أن أخفي عليه إسلامي لمدة طويلة، فلقد علم عن صيامي وصلاتي. لقد رأتني إحدى الخادمات وأنا أصلي فاستغربت الأمر بادئه، ثم ذَهَبَتْ لأمي لتخبرها بما رأتْ وما لم تعهد؛ فراقبتني أمي، ولكنها لم تنكر عليَّ شيئًا فهو أمرٌ أعتادت رؤيته في قومها في الصغر، وهي لا تمانع أن أختار ما شئت من الأديان، ما دام والدي لن يغضب، إلا أنها عارضتني في الصيام خوفًا على صحتي، فواجهتها بحقيقة أن الذي خلقنا ورزقنا لم يرد بنا الهلاك، ولم يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنَّ بي طاقة.

لم تتفهم الأمر كثيرًا، ولم تعره اهتمامًا، ولكنها كانت لا تترك فرصة إلا نهتني فيها عن الصوم خوفًا عليَّ، وهددتني بأن تخبر أبي بإسلامي - وهو ما لن يروق له على حد علمها- فاضطررت لأن أقضي معظم يومي في غرفتي بعيدًا عن أهل القصر كي لا تزعجني أمي، وتحججت بأني أشعر بالإعياء وأحتاج للنوم.

لقد أخبرته أمي بالأمر إذ سألها عن أحوالي، فهو بدأ يلحظ عليَّ

أمورًا لم يعتد رؤيتها مني.

لم يواجهني أبي بالنقاش بعد، ولكنَّه بالتأكيد سيفعل، وإلى هذا الوقت، سأتحضر لهذا النقاش الطويل العصيب جيدًا. أبي رجلٌ عقلانيٌّ، وهذا ما سيجعل للنقاش معه معنى وغاية، ولكن أرجوا أنْ يخرجه الله من الظلمات إلى النور، وأن لا يصده الشيطان عن الحقيقة البيِّنة.

آيو.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

قاسم...

لقد جاء أبي الليلة الفائتة وواجهني بالسؤال:

– لماذا يا آيو؟

لقد فاجئني ببساطة وعفوية سؤاله، ورأيت في عينيه حزنًا ممزوجًا بِأَسَاً ويشوبهما غضب وحيرة.

– لأنَّه الحق يا أبي، وما تعبدونه لهو الباطل.

– أتنكرين عظمة أضواء السماء يا فتاتي ووجودها، وتعبدين ما لا تَرين؟

– وهل لا بدَّ لك من رؤية قلبي لتعلم أنّه موجود، يا أبي؟ يكفيك أن

ترى أثره لتعلم بوجوده. يا أبتِ إنَّ أضواء السماء ما هي إلا مخلوقات أوجدها ربُّنا الذي خلقنا، وكلٌ في فلكٍ يسبحون.

نظر إليَّ أبي بشرودٍ، ثم قام ورحل.

أتظنني أستطيع أن أهديه لطريق الحق وأبصِّره كما بصَّرتني؟

آيو.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

الأميرة الشجاعة: آيو...

مباركٌ لك ارتدائك الحجاب سيدتي الأميرة...إنّه لأمرٌ عظيم، وأسأل الله أن يثبتك على الحق المبين.

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).

أصبري، وصابري، واسألي الله له الخير، وأستهدي الله له، فكلنا ضالٌ إلا من هداه الله، والله يهدي من يّشاء إلى صراطٍ مستقيم.

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا).

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).

هذه زهرة الأوركيد هديةً لك بمناسبة ارتدائك للحجاب. أرجو أن تنال إعجابك.

فارسك المخلص: قاسم.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

قاسم...

شكرًا لك على زهرة الأوركيد الجميلة، لقد أعجبتني بشدة، وأدخلت عليَّ سرورًا كبيرًا، ولكنَّ هذا السرور لم يدم طويلًا؛ لم يناقشني أبي ثانيةً في الموضوع، وأصبح لا يكلمني إلا لِمامًا، ولا يكاد يلقي عليَّ تحية الصباح.

وما زاد الطين بِلَّةً هو أنِّي قرأتُ آيةً بثَّت فيَّ خوفًا شديدًا:

(وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

لقد خِفت على أبي، وخفت على أمِّي التي فقدت من دينها كلَّه إلا لقب مسلمة. لم يعب أبي على أمي إسلامها -وإن كان يُخالفها في الأمر- لأنه لا يريد أن يُفْقِدَهَا هويتها العربية والإسلامية كما أفقدها قرب

أهلها ووطنها.

لست أدري إن كانت أمي لم تعمل بأمور الإسلام منذ الصغر، أم أن أبي هو من أمرها بأن تترك هذه الأمور ولا تحتفظ من إسلامها إلا بالاسم واللقب؟

لا أريد أن أرى أبي في النار يومَ القيامة يا قاسم، أنا أحبه.

ولأنَّ الأحزان لا تأتي فُرادى، فلقد أخبرتني غُفيرة -والتي صارت كأختي الثانية كما سايا- عن أمر تقابلنا والذي بُحْنَا فيه بمشاعرنا لبعضنا تعريضًا وتلويحًا، فأخبرتني أن علينا أن نتوقف عن التقابل، فهذا نوع من أنواع الخلوة بين الرجل والمرأة ما دام سِرًا بينهما. صحيحٌ أنَّها ليست خلوة بين الأجساد، فنحن نتقابل على مرأً من الناس، ولكنِ من تمام العفة، أن تحفظ الأرواح والجَنَان من كهذه خلوة أيضًا، درأً لطرق الشيطان، ودحضًا لخطواته.

لقد أخبرتْني أن أخبرك بهذه الآية على لسانها:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أظن أنِّي سآخذ بنصيحتها، وأني سأتوقف عن إرسال الرسائل لفترةٍ، حتى ألملم شتات نفسي.

أرجوا ألا تنساني، وادعُ الله أن يهدي أبي.

إلى اللقاء...فارسي المخلص.

أميرتك المخلصة: آيو.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

سيدتي الأميرة: آيو...

لقد تغلَّب التلميذ على الأستاذ يا غُفيرة، وإن الشيطان قد أتاني بخطواته التي لها دبيبٌ كدبيب النمل، وإنِّي قد انسقت ورائه كما الأعمى الذي نسي الورع وخشية ربِّه.

عذرًا سيدتي الأميرة أنِّي لم استمع لصوت الواعظ في قلبي، واستمعت لصوت الهوى وشيطاني، وانسقت إلى اللقاء وأحببته، بل وكنت قد بدأت أدخل فيه من الكلام ما يحرك المشاعر، ويضعف الطرفين. ولكنَّ الله يشهد أنَّي ما أردت بك سوءً، خوفًا منه قبل أن يكون خوفًا من أباك وسلطانه.

إنَّ القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، وإنِّي على فراقك لمحزون، ولكنَّه أمرُ الله، وأمره نافذٌ مُطاع؛ (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)، (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)؛ عسَى اَللهُ أن يجمعنا قريبًا، (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما

ظنّا كلّ الظنِّ أن لا تلاقيًا

أتمنى على الأقل ألا تنقطع عني رسائلك حتى أتابع أخبارك، وأعطيك من علمي ما استطعت في وريقات لا تضير، ولا تُغِير، ولكني سأتركك حتى تستعيدي راحة بالك، فالأمر ثقيل، ولكن (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ). سأدعوا الله أن يهديَ أباك...عسى الله أن يهديه سَوَاءَ السبيل.

فارسك المخلص: قاسم.

***

توقفنا عن تبادل الرسائل. مرَّ أسبوعٌ، واثنان، وثلاثة، وأنا أنتظر أمام الباب كلَّ مساء عسى أن يأتيني الغلام الذين كان يهبُّ عليَّ بنسائم كلماتها مخطوطة في رسالة، ملفوفة بشريطة وردية، ولكن هيهات هيهات لما أمِلت.

أخطأ مَن قال:

إنَّما تبكي على الحُبِّ النساء

فوالله إنِّي قد وجدت في صدري خواء، وفي عينيَّ دموعًا ألَّا أستطيع أن أحادثها، وما لي طَوْلٌ أن أذهب لأبيها لأطلبها منه فهي من هي، وأنا من أنا.

مرَّت الأسابيع الواحد تلو الآخر، ومرَّ شهرٌ واثنان، ولم تأتِ حتى إلى معسكر الفرسان لتُشاهد عروضنا. حاولت أن أتتبع أخبارها من معارف لي يخدمون في حراسة القصر المَلَكيِّ، ولكنِّي لم أظفر منهم سوى

بهز أكتافهم. ما عاد لي سوى لوحاتها، التي يزخر بها بيتي، لأنظر إليها فأجد فيها ريحها...تالله إنِّي لأجد ريح يوسف لو لا أن تُفَنِّدون.

إنّها لَمحنَةٌ أن تفقد ما كنت به قد تعلَّقت، وكل ما شقَّ على النفس فهو مكفِّرٌ للذَنوب. اتجهت إلى ربِّي ذاكرًا، وعلى غزير فضله شاكرًا، ولأكُفِّ الضراعة رافعًا، وفي جوف الليل داعيًا مولايَ أن: ربِّ إنِّي لما أنزلت إليَّ من خيرٍ فقير.

فجائتني -بعد شهرين ونصف من الانقطاع- إحداهنَّ تمشي على استحياء، وفي يدها ظرفٌ يحمل في رَحِمه رسالة لي...من الأميرة. سبحان رَبِّي! (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ).

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلاةً وسلامًا على سيدي رسول الله

قاسم...

كم اشتقت لكتابة اسمك، وكتابة الرسائل إليك.

لقد أسلمت سايا...أجل إنها الفتاة التي جائتك تحمل إليك خبر إسلامها في رسالتي.

لقد بدأت أمي تلين أيضًا لي، وجلست يومًا تستمع إليَّ وأنا أقرأ

القرآن، حتى إذا رفعت إليها عينيَّ وجدتهما أغرورقتا بالدموع. إنَّها البداية فقط، ولكن عسى الله أن يردها إليه ردًا جميلًا...ويتوب الله على من تاب.

أمَّا أبي فكان قد انقطع عن مناقشتي طوال مدة انقطاع التواصل بيننا، ولكنَّه طلبني يومًا فأخذ يسألني عن الإسلام وعن القرآن والنبي محمد - ﷺ - ولكنَّه وجد علمي قليلًا غير كاف لإشباع نهم فضوله، وعمق أسئلته. لذلك رأيت أن أرشده إليك لعلَّكَ تكون أنت دوائه من هذا الضلال، ولعلَّ الله يجعل على يديك شفائه.

سألني أبي ممن تعلَّمت الإسلام وأموره، فأخبرته بادئ الأمر من الكتب، ولكنَّه شك في صدقي، فأخبرته عنك، فقال لي أئتيني به أكلمه، وأستبين منه ما عليَّ قد غُمَّ.

فأرجوا أن تقبل دعوتي للقصر لمقابلة أبي: الملك سيدور، وأسأل الله لك السداد والتوفيق.

المخلصة لك: آيو.

***

الفصل العاشر:
ولمَّا بلغ أشدَّهُ

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

مدينة شُرِيْقة - صيف عامِ ١٤٢٢ ميلاديًا / ٨٢٤ هجريًا:

- الملك يأذن لك في الدخول.

- (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي).

دلفتُ إلى مجلس الملك في قصره المشيد المهيب. الأرض مصقولة حتى تكاد تعكس صورتك فيها، وكل شيء مرصّع بالذهب والفضة، والزخارف والنقوش تحيط بالسائر فيه من كل جانب. كانت هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها قصرًا كهذا؛ صحيحٌ أنني عشت في قصر القائد كيت لفترة من الزمن، ولكنَّه لا يُقارن بهذا.

جذب انتباهي أن القصر مقسَّمٌ إلى ثلاث مجموعات بنائية يفصل بين كلٍّ منها مساحة خضراء شاسعة، وكانت كل مجموعة بنائية أفخم من سابقتها. تجاوزت المجموعة الأولى، والتي كانت مخصصة للحرس والخدم، ثمَّ دلفت إلى المجموعة الثاني، والتي كان مخصصةً لقاعات

اجتماعات الملك بوزرائه وضيوفه، وكانت المجموعة الثالث هي مسكن الملك وعائلته وكانت جديرةً بذلك، ولا يدخلها أحدٌ غيرهم، وبعض الخاصة من الخدم والحرس.

جذب انتباهي في غرفة الانتظار في المجموعة البنائية الثانية عدة لوحات متجاورة للعائلة الملكية؛ كل لوحة مكتوب تحتها تاريخ رسمها، واسماء من فيها، وأعمارهم؛ وكانت اللوحات مختلفة عن بعضها؛ يبدوا أن كل لوحة قد رُسمت للعائلة في عام مختلف عن أختها. كان من عادة المَلِك أن يحضر رسَّامًا ليوثق صورة عائلته في كل عام، وهو ما كان أجمل زينة في القصر من وجهة نظري.

أذن لي الملك بالدخول عليه، حيث جائني حاجبه قاطعًا تأملي في لوحات العائلة الملكية، والتي رأيت أفرادها من قبل في عرض للفروسية في المعسكر عندما كنت لا أزال فارسًا تحت التدريب، ولم أكن يومها أشترك في العروض، ولكني حظيت بعدها بشرف أن أشترك في عروض فروسية تمتع ناظري الأميرة آيو.

دخلت على الملك في مجلسه، فهالني المنظر إذ رأيته جالسًا وحوله وزرائه الثلاثة ونوَّابهم: وزير الحكمة والقضاء ونائبه، الخازن ونائبه، قائد الجيش ونائبه القائد كيت. كان الملك رجلًا ضخم البنيان عاليه، بهيَّ الطلَّة، تبدو عليه الحنكة والخبرة والحكمة، وترى في عينيه الزرقاوين هدوء الأميرة آيو الذي يبدوا أنَّها ورثته عنه؛ وكان رأسه يحمل تاجًا مرصَّعًا بمختلف أنواع الحُلِيِّ وتحته شعرٌ أسود ينسدل على

كتفيه؛ أبيض البشرة مثل الأميرة، ولديه شامةٌ سوداء صغيرة على خدِّه الأيمن.

خلعت خوذتي متأبِّطًا إياها، ودخلت في هدوء ونظر منكَّس إلى الأرض، ورأس شامخ يأبى الانحناء، وهو ما أثار حفيظةَ الملك ًبادئ الأمر، ولكنَّه عُرف بالحلم والحكمة فلم يتسرع في قرار أو فعل.

ليس الغبيُّ بسيدٍ في قومِهِ
ولكنَّ سيدَ قومِهِ المُتَغَابِي

- السلام عليك، أيها الملك الكريم...السلام عليكم أيها السادة الأشراف.

- عمت صباحًا، أيها الفارس النبيل. مالك لا تنحني إذ أنت داخل عليَّ؟

- أنا مسلمٌ يا جلالة الملك، وربِّي أمرني ألا أنحني إلا له، فهو الواحد الأحد المستحق لذلك.

- إذًا كيف تُظهرون لملوككم الاحترام والتقدير؟

- نحن لا نقدر الملوك وحسب يا مولاي، بل نوقِّر كبيرنا، ونعرف لعالمنا قدره، وتوقيرنا لهم بما يناسب قدرهم، ولا نعظمهم كما عظَّم بنوا إسرائل عزيرًا أو نبيَ الله عيسى بن مريم -عليه السلام.

- ألَّبت ابنتي على آلهتنا، والآن تأبى أن تنحني للملك وأنت من

فرسانه...إنَّه لعجيبٌ أمرك!

– ما أَلَّبت أحدًا على جلاتلك، لقد أخبرتها عن الحق، وأرشدتها إليه.

– وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

– (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُوقِنِينَ).

– وما الذي يجعلك موقنًا هكذا؟

– جلالة الملك...البعرة تدل على البعير، والسير يدل على المسير، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا يدل ذلك على الكبير المتعال؟

– ولكنَّك لا تراه...كيف تعبد شيئًا لا تراه أيها الفتى؟ وكيف لك أن تنكر عظمة أضواء السماء وهي التي جمالها واضح، ونورها للعيان ظاهر، وعلوَّها شاهق، وهي في السماء، وأجدر بالإله أن يكون هناك؟

– أَوَكُلَّ ما عَظُمَ جماله، وتجلَّى نوره، وعلو مكانه وشأنه صار إلهًا؟ إنَّ الله أقسم في كتابه الكريم بالسماء وما فيها، وببروجها، وبالنجوم ومواقعها، وقال -جلَّ من قائل: (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)، ولكنه لم يقل اعبدوها، بل قال -سبحانه وتعالى: (وَمِنْ آيَاته اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا للشَّمْس وَلَا للْقَمَر وَاسْجُدُوا لله الَّذي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ). جلالة الملك...هل يوجد في المملكة سجونَ وقوانينَ بالقتل أو الجَلْد؟

- أجل!

- إذًا فهناك جرائم تحدث في المملكة.

- وهل هناك بلد يخلوا منها؟

- لا...إلا إن حدث أن الجميع يرون ملكهم وجنوده في كل مكان، وهو يراهم في كل مكان، وأنهم يعلمون علم اليقين وعينه أنَّهم إن أخطئوا فإنهم سيعاقبون الآن أو لاحقًا -لن يُشَكِّلَ الأمر فارقًا كبيرًا- لأنهم قد شوهدوا، ولا مفرَّ لهم ولا مناص من العقاب وإن تأخَّرَ، العقاب أليم. ولكن إن حدث ذلك فكيف يُعلَمُ حينها من يخاف رَّبَّهُ بالغيب، وكيف يُعلَمُ المؤمن من الكافر والمنافق، وكيف يُعلَمُ أيُّنا أحسن عملًا؟

- لن يُعلَم.

- فلما العجب أنَّ الله هو الحق، وأنَّه قد حجب عنَّا رؤيته في الدنيا لحكمة يعلمها، وهو العليم الحكيم؟ وضف إلى ذلك -جلالة الملك- أن النظر إلى وجه رَبِّنا الكريم هو أعظم جائزة للمؤمنين الصالحين، أعظم حتى من الجنَّة؛ فوَجبَ أن تكون هذه جائزة خالصة للفائزين في الآخرة.

- ولكن كيف لك أن تعلم عظمته إن لم تكن تراه؟ وكيف لك أن تعلم بالتحديد من الذي ستعبد إذا كنت لا تراه، فهناك كثير لا نراه في هذا العالم؟

- لذلك بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ليخبرونا أنَّا نعيش في

ملك الله، وبرزق الله، وأنَّ الله قد استخلفنا في أرضه، وناظر كيف فيها نعمل. وعَلِمنا -جلالتك- أنَّ هؤلاء البشر الذين أتونا هم أنبياء من عند الله الإله الحق حقًا -لا كهنة أو دجالين- عن طريق ما أرانا الله على أيديهم من معجزات، وآيات بينات، وبها وبعظيم خَلْقِ اللهِ عَلِمْنَا عظمة الله -جلَّ جلاله.

– لكنَّا لم نرى نبيًا ولم يصلنا منهم إلا خبرهم.

– بل ووصلنا من خاتَمِهم: نبي الله محمد - ﷺ - معجزةٌ باقية إلى أن يرفعها الله حين لا يبقى في الأرض من يقول الله الله. إنَّ القرآن لهو المعجزة الأعظم، والخطاب الأوفى الذي يخبرنا -نحن الذين لم نعاصر نبيًا ولا رسولًا- فيه ربُّنا عن نفسه -سبحانه وتعالى- ويقول لنا كيف نعبده، وما نفعل وما نترك.

– ولكن كيف لي أن أعلم عظمة الإله من كتاب؟ الجميع يستطيعون كتابة الكتب إن أتيحت لهم الفرصة.

– هل يستطيع أحدٌ من سكان كارمينيا أن يكتب مثل زراكشين: كاتب كارمينيا العظيم؟

– بالطبع لا.

– فلله المثل الأعلى؛ فإنَّ الله قد تحدَّى الإنس والجنَّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن، أو عشر سور منه، أو سورة، فلم يستطيعوا لهذا طَوْلًا. ولكنَّ الله يعلم أنَّ ليس الجميع في العلم سواء ليفهموا القرآن،

فجعل بحكمته علماء يرثون الأنبياء في العلم، فيتعلمون ويعلمون الناس؛ وجعل الله آياته ومعجزاته مستمرة بعد الأنبياء، ولكنها ليست صريحة كمعجزات الأنبياء؛ بمعنى أنَّ الله لن يبعث لك عصاً تتحول لحيَّة، ولكنَّه يُرينَا آياته في الأفاق وفي أنفسنا حتى يتبيَّن لنا أنَّه الله؛ ومن يعش، يرَ؛ وإنَّ غدًا لناظره قريب؛ وكفى بربِّي على كل شيء شهيدًا.

– هل معك نسخة من هذا القرآن؟

– أجل، سيدي الملك...لقد أحضرت عدةَ نسخ لجلالتك، وللسادة الوزراء الأشراف.

– جيِّد...وكم تظنني أحتاج لأنتهي من قرائته؟

– أظن بالنسبة لبُعد جلالتك عن اللغة العربية الأصيلة، ولتتدبره جيدًا، فستحتاج إلى ستة أشهر أو عشرًا.

– فليكن...وحتى انتهي منه، ستبقى في سجن القصر، وبعدها سأنظر إن كنت من الصادقين، أم أنك كذاب أثيم.

تسرب الخوف إلى قلبي، ولكنِّي لم أرَ من الأمر مناصًا أو مفرًا.

– ولكن هل لي بطلب؟

– وما هو؟

– أريد أن يحضر لي أحد الجنود نسخة من القرآن أحتفظ بها في بيتي لأقرأها في السجن؟

- ما بالك ألا تصبر على فراقه لعدة أشهر؟

- أفَيُريد جلالة الملك أن يجعل عليَّ الظلمة ظلمات: ظلمة السجن، وظلمة قلبي؟

- عجيبٌ أمرك! حسنًا...لك ما أردت.

مرَّت شهور السجن طويلة كأنهنَّ سنين. كانوا يبقونني في ظلمة دامسة، فلا أدري كم مرَّ من الوقت، وعجزت عن قراءة القرآن، فقرأت مما أحفظ، وكانت آيو تتسلل خلسة بين الحين والآخر إلى سجن القصر لتعطيني طعامًا من لذيذ طعامها، وتؤنس وحدتي ووحشتي بكلامها وقصصها، وتشعل لي سراجًا لأقرأ عليه ما تيسر من القرآن؛ وكنت اعلم منها عدد الأيام والأسابيع.

كانت آيو تدفع لحارس السجن بعض النقود الذهبية مقابل أن يعشوَ عن مساعدتها هذه لي، وأن يترك المكان قليلًا لتحدثني بما يجول في خاطرها، وأحداث يومها. كان هذا هو ما هوَّن عليَّ السجن، فلقد كانت سويعاتها بجانبي دقائق من النعيم، وكان كلامها وأحاديثها نغمٌ تطرب به أذني، وتتسلى به نفسي؛ ولكنِّي طلبت منها ألا تكرر ذلك فهو رشوة، وقد لعن الله الراشي والمرتشي...سلي الله لي يا آيو أن ينجيني من هذا، وأن ينجيَّ والدك من النار. عسى اللَّه أن يهدي الملِك، ويجعل لي من أمري يُسرًا.

في إحدى الليالي، وبينما أنا أصلي ما يسَّرَ لي رَبِّي من قيام الليل، وكنت اقرأ بقول الله -تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا

تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا)؛ فسمعت بكاءً وهمهمةً أخرجتني من خشوعي في الصلاة، فأنا لم أتوقع أن أجد من يبكي هنا، وليس في المكان سجين غيري -على حدِّ عِلْمِي- والحارس نائم لا يُسمع منه إلا غطاطه. أنهيت صلاتي وقمت أَنظر من القضبان استطلع الأمر، ولكنِّي لم أرَ أحدًا وكان الصوت قد انقطع.

انقضى الأجل، وجائني رسول الملك ليخرجني من موبقي لأمثل أمام الملك ووزرائه مرة أخرى، ولكن هذه المرة رأيت الملكة جالسة عن يمين الملك وفي وجهها بشاشة، وعن شماله الأميرة آيو ووجهها متهلل، فعلمت أنَّها البُشْرى.

- لقد قرأت الكتاب أيها السوليني، وسمعت دندناتك بالقرآن في زنزانتك، ورأيتك تصلي ليلًا والحارس نائم. إنَّ لهذا الكتاب لحلاوة، وإنَّه لا يملك السامع دمع عينيه إذا نفذ إلى قلبه، ولا ثبوت قدميه إذا تمكن من عقله، وإنِّي لما سمعتك تقول (فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا)، خررت ساجدًا، وأنا الذي لم أعهد إلا أن يُنحنى لي؛ حتى أضواء السماء، ما كنت أسجد لها فلقد كنت أقدس جمالها، ولكنِّي ما رأيت منها دليلًا على عظمتة قدرتها إلا نورها؛ وإنَّ ما يأفل في النهار، كيف له أن يكلأني في لأوائه؟ لقد كفرت بأضواء السماء، وآمنت بإلهك. ولكن ليطمأنَّ قلبي سأسألك سؤال...لماذا تركك ربُّك لتدخل السجن ولم يمنعك مني، ولقد كنت قادرًا على قتلك، أو تعذيبك؟ ولماذا تركك قبلها لتصير عبدًا؟ ولماذا يتركك لتعاني وأنت تؤمن به، ونحن الذين كنا

به كافرون ننعم في بلهمية من العيش وسعة منه؟

- ابتسمت الأميرة آيو، فلقد كانت تعلم إجابة هذا السؤال إذ سبقت أباها به في رسائلها لي.

- إنَّ الله قد جعل الموت والحياة ليبلونا أيُّنا أحسن عملًا، وإني وإياكم وكل الناس سنعود إليه ليحاسبنا على ما فعلنا فيما استُخلِفنا فيه، وكل الذي فوق التراب ترابُ؛ لا الملك باقٍ ولا الملوك تعيش، ولو كان ذاك لمن كان قبلنا، لما وصلتنا هذه القصورُ والأموال. إنَّ الله يبتلي عباده بما يريد، وإنَّ ربِّي لطيفٌ لما يشاء، فلا يُسَّألُ العليم الحكيم عن فعله، ونحن نُسأل عما نفعل ونُجرم. لا النعيم ثواب للمطيعين في هذه الدنيا، ولا النقمة عقاب للعاصين فيها. ابتلاك الله -سيدي الملك- بالمال والمُلك، وابتُليتُ بما شاء ربِّي وهو أرحمُ الراحمين، (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ).

- الآن...الآن. أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله.

قالها الملك غير مترددٍ ولا عابئٍ بنظرات وزرائه الحائرة الذين لم يجدوا سوى أن يتبعوا ملكهم ويكونوا على أثره مقتدين.

- يا فتى إنَّك اليوم لدينا مكين أمين. أيرضيك أن تكون قائد سلاح الفرسان في كارمينيا؟

- ما ارتضاه الملك لي أرتضيه لنفسي.

- أبي! لم نتفق على هذا.

صاحت الأميرة آيو معلنة اعتراضها على هذا القرار السريع.

– على رِسلِك يا حبيبتي. يا قاسم...إنَّ ابنتي الأميرة آيو تريدك أن تكون حارِسًا لها، ولقد فهمت غير الذي قالته بفيهها، وقد رأيت من أمركما إذ كانت تأتيك في السجن ما رأيت؛ فهل ترقى لأن تكون زوج ابنتي؟

– ومن ذا الذي لا يسعى إلى مثل ذلك، يا مولاي.

– إذًا هي لك زوجة وقرة عين إن أنت أتيت بما قد عجز عنه جهابزة كارمينيا.

– قد عَلِمَ مولاي أن مالي من مالٍ غير بيتي ودرعي وبعض يوكات أسدُّ بها فاقتي.

– هو بيتك مهرٌ لها، ونحن نكفيك عيشكم وسكنكم، ولكن ما قصدته هو أن تأتي بحل لمشكلة الجراد في أوستين، والتي قد طال أثرها كارمينيا، فانقطعت عناً زروعها، وهو ما أضعف خزانتنا من الطعام؛ وقل بيعنا للملابس المصبوغة فما عاد يأتينا كثير من القطن، والكتان لنصبغه. إنَّك أحد العرب القلائل في صفوف فرساننا، ولكنك أجدرهم وأعلمهم، ولقد علمت الآن ما رآه القائد كيت فيك، وقد طفت بلاد العرب وخبرتها. أبوك من أوستين، فأحسب أنَّك المنشود لهذه المهمة.

– أستعين بالله على هذا الأمر العظيم، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلّت وإليه أنيب.

شحذ لي الملك كل علماء وعباقرة كارمينيا لنبحث في أمر الجراد في أوستين، ورأينا أن أذهب مع بعض من علماء كارمينيا إلى أوستين لندرس هذا الجدراد ونرى إن كان له من نقطة ضعف نستطيع أن نضربه فيها فنجلي أسرابه عن أوستين.

استغرق الأمر منَّا عامين من الدراسة المتعمقة في الجراد وحياته وأحواله في أوستين، وظروف الناس هناك.

- السلام عليك يا مهد والدي، ومرقد جدتي.

لقد كانت أوستين أشبه بقرية مهجورة لا يقتنها إلا عدد قليل من الناس الذين يزرعون في أفنية منازلهم ما يتبلَّغون به، أمَّا المزارع الضخمة فقد صارت يبابا، ويئس الناس من زراعتها ليأكلها الجراد، فيكونون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا.

في هذه الأثناء كانت الأمور في كارمينيا تتغير بشكل كبير، فلقد دخل كثير من الناس الإسلام هناك بعد أن علموا بإسلام الملك ووزرائه -فإذا تحرَّك الرأس، تبعته الأطراف- وتهافت الكثير من الناس على العبيد في قصر القائد كيت، والذين كنت قد علمتهم بعض أمور دينهم فتفقهوا فيها وصاروا أئمةً في أوستين بعد ما كانوا عبيدًا فيها، فسبحان من جعل العبيد أعزاء بطاعته!

سعى الملك لجلب الكثير من علماء المسلمين من المشرق ليتفقه الناس في دينهم الجديد، وبنى في هاتين السنتين قرابة الثلاثين مسجدًا في جميع أنحاء كارمينيا. فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

لم تتوقف الأحداث الجديدة على داخل المملكة وحسب، فلقد نقض قراصنة سولين العهد مع كارمينيا، وهجموا على جزيرة التجار، فأرسل إليهم الملك أسطوله فكان كموج البحر عليهم فأغرق سفنهم، واستأصل شأفتهم. صارت الآن سولين -أو ما تبقَّى منها- تحت حكم مملكة كارمينيا، وظلت بلدًا إسلامية كما هي، فكارمينيا الآن تدين بالإسلام دينًا لها. صارت كارمينيا أقرب ما تكون من بلاد العرب يدًا وطَوْلًا، ولكنها لم تُغِر عليهم، فبينهم عهود ومواثيق، والمصالح مشتركة بينهم، وكارمينيا الآن من بلاد المسليمن.

- أيها الملك...أنا رسول الإمام: قاسم بن فِراس السوليني؛ لقد توصلنا لحلٍّ نعتقد أنَّه سيقضي على مشكلة الجراد.

- صدقًا تقول؟

- أجل، يا مولاي. لقد اكتشفنا عدة طرق سنستخدمها معًا.

- وما هي تلك الطرق؟

- الدجاج.

- الدجاج!

- أجل يا مولاي، إنَّه يأكل الجراد، ولكنَّنا سنحتاج أيضًا إلى حصون.

- حصون! ضد الجراد! أَبِنْ يا هذا.

- يا جلالة الملك...إنَّا إذا هجم علينا عدوٌ فلا بدَّ لنا من حصون؛

الجراد لا يهجم على النَّاس، بل على المزارع، ولكنَّ الزرع لا يستطيع أن ينموا في حصون لا تدخلها الشمس، لذلك سنستعين بخبرة مدينة أُسُونا في صناعة الزجاج، وسنبني حصونًا زجاجية حول المزارع، وستكون سُقُفُها قابلة للغلق والفتح بواسطة حبل يُشَدُّ من الأسفل، حتى يتسنى لمياه الأمطار أن تبلغ الزرع، ولكيلا يتغير تركيز أشعة الشمس بفعل الزجاج لمدة طويل.

– وهل هناك شيءٌ آخر؟

– أجل يا مولاي...الخيمياء.

– ما بال الخيمياء؟

– لقد توصلنا لصناعة هواء مُرَكَّب من عدة مواد مختلفة يقتل الجراد، وإن كان بنسبة قليلة، ولكنه فعال، وجربناه على مائة جرادة فمات ثُلُثها تقريبًا.

– ولكن كيف ستصيبون به الجراد وهو يطير في الجو، وهل هذا الهواء ضار بالناس والبهائم والزروع؟

– كلا يا مولاي، إنَّه لا يصيب أي مخلوقات غير الجراد وبعض الحشرات بأضرار كبيرة عدى السعال لبعض الناس، ولتجنب ذلك سنستخدمه على أسراب الجراد على مشارف المدينة قبل أن تبلغها. وسنستخدم المنجنيق.

– ومتى كانت المناجق تقذف الهواء؟

– سنعبِّئ هذا الهواء القاتل للجراد في حقائب كروية الشكل قابلة للانفجار عند ثقبها، وسنملؤها عن آخرها، ثم نقذفها بالمناجق على أسراب الجراد، وهنا يأتي دور الرماة المهرة في المملكة، حيث سيثقبون هذه الحقائب الكروية بالقرب من أسراب الجراد فتنفجر فيهم وتوقع فيهم القتل.

– لم أخطئ حين أعطيت لهذا السوليني مهمة كهذه. حضِّروا جيشًا من الفرسان والرماة، وجهزوا المناجق؛ وأنت أيها الرسول...اذهب إلى أسُونا فانظر ما تحتاج منها وأنا أكفيكه. الله أكبر! لنقضي على الجراد، ولتحيا كارمينيا.

جاء جيش كارمينيا وبُنَّائُها، بعد ستة أشهر استغرقوها في تجهيز العدة والرماة، وفي الظعن إلى أوستين. كل هؤلاء طوع أمري، ورهن إشارتي. فسبحان من جعل العبيد أعزاءً بطاعته.

بدأنا بالبناء، فأحطنا كل مزرعة في أوستين بحصن زجاجي قوي يتحمل الرياح وشدتها، والأمطار وغزارتها، وفي غضون هذا الوقت كنت أرسل الرُسُل إلى القرى والمدن المجاورة ليأتوني بسكان أوستين القدامى، أو بمن له خبرة في الزراعة ويريد أن ينزل من أوستين مُنزَلًا؛ فجاء كثير ممن هاجروا أوستين إلى سولين وغيرها، ورأيت من مهاجري سولين من أعرفهم، ولا زالوا يحملون رائحة الماضي، ولكنهم كانوا لي منكرين، فلقد غيَّر الزمان ملامحي؛ أمَّا رُسُلي إلى مدينة الحكمة فقد

رجعوا بخُفيِّ حُنين، إذ وجدوا مدينة الحكمة خاويةً على عروشها كأن لم تكن شيئًا، وكأن لم يغنى فيها أهلها.

- إنَّها أطلال، يا سيدي الإمام.

- ماذا تعني بأطلال؟

- إنَّ مدينة الحكمة ليس بها سوى منازلها العالية، وبئَرُها المعطلة، وقصورها المشيدة الخاوية. أخبرني أحد سكان القرى المجاورة أنَّها قد أصابها الطاعون منذ أربع سنين، وهلكوا به جميعًا في غضون ثلاثة أعوام.

أصابتني الصدمة بعد أن سمعت تقرير مبعوثيَّ إلى مدينة الحكمة، وأصابني الحزن على أهلها الصالحين، والأسف على مترفيها الفاسقين، ودعوت لجدي وجدتي بالرحمة عسى الله أن يجعلهما في جنَّاته جنَّات النعيم؛ ثم تذكرت قول ربِّي -تبارك وتعالى- فيما قصَّ عن نبيه صالح إذ رأى هلاك قومه...قوم ثمود: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ).

- وماذا عن قرية العِزَّة...هل أصابها الطاعون هي الأخرى؟

- لا، هلكت قبل ذلك، اختطفوا أحد أقرباء ملك مدينة الحكمة وباعوه عبدًا، فغضب عليهم ملك مدينة الحكمة، فأغار عليهم، ولم يترك منهم ذي كبدٍ.

- سبحان من أهلك الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بين أيديهم

سالمين!

الذين اتَّبَعُوا مَعَ الذين اتُّبِعُوا

زرعنا المزارع في أوستين، حتى إذا ازدهرت، وجاء فصل الربيع، وحان الوقت تجهزنا، فأعتدنا العُدة، وأخذنا حذرنا، وترقبنا عدونا، ودعونا ربَّنا إنَّه سميعٌ قريب مجيب.

جاء الجراد، وجائت ساعة الحقيقة، إمَّا أن تُجدي أعمالنا نفعًا، أو أن يصير جهدنا هباء منثورًا ترقص فوق حطامه أسراب الجراد.

- استعدوا...عند كلمتي...أطلقوا المناجق...ليستعد الرماة... صوِّبوا...أطلقوا

- اللهُ أكبر، ولله الحمد

- الله أكبر، ولله الحمد...

تساقط الجراد أمامنا، وما نجى منه من مناجقنا، فرَّ هاربًا، أو ذهب ليحاول أن ينتقم منا بأن ينال من زروعنا فوجد الزجاج يحول بينه وبين ما يشتهي، والدجاج ينقض على ما يهبط منه أرضًا، فكان النصر؛ والحمد لله رَبِّ العالمين.

عادت الطيور إلى أوستين، وتذكرت ما حكاه لي أبي عنها، فخطبت في النَّاس أن:

- إنَّ الله قد منَّ عليكم بأن نجاكم من هذا العذاب بعد إذ ظننت أنَّه

لن يزول، وردَّ عليكم أرضكم وديارَكم وطيورَكم؛ وطيورُكم جيرانكم في السماء، فلا تؤذوها. (عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا).

عدنا إلى كارمينيا بعد أن تركت بعض الجنود في أوستين مع المناجق ليكونوا حامية لها، وأعلنَّا أنها تحت وصاية كارمينيا، وكنت قد أرسلت رسولًا يسبقنا ليُزفَّ للمَلِك والمملكة الأخبار السارة، ومررت في طريق العودة على سولين التي تغيرت ملامحها.

وأمَّا الديار فإنَّها كديارهم

وأرى رجال الحي غير رجالهِ

آه يا وطني الحبيب سولين...عشتُ فيك لحظات من الحزن، وشهدت فيك عدل الله في خلقه، وهجرتك وإنِّي على فراقك لمحزون لمحزونُ، لكنَّك لا تزالين موطني، رغم ما كان فيك من ظلم، ورغم ما كان فيك من ذكريات حزينة مؤلمة، وكيف لا وأنت تحتضنين جسد أمي وجسد شيخي ومعلِّمي.

بلادٌ ألفناها على كلِّ حالٍ

وقد يُؤلَف الشيء الذي ليس بالحسنِ

وتستَعذِبُ الأرضَ لا هوى لها

ولا ماءها عذبٌ، ولكنَّها وطنُ

وجدت أن أزور قبر أبي، ولكن منعني تفشي طاعون مدينة الحكمة، فبعثت بالدعاء والاستغفار لأبي.

عن أبي هُريرة -رضيَ الله عنه- أنَّ رسول الله - ﷺ - قال:

(إنَّ الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنَّة، فيقول: يا رَبِّ من أين لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك).

أما قبر أمي وشيخي فملئت منهما عينيَّ، ورويتهما بدموعهما، ورفعت بالدعاء لرَبِّي لهما يديَّ، وواحسرتاه على عظيم من فقدتُ.

هل وجدوا من فقدوا؟

لا، بل يئسوا فانقلبوا.

***

وها أنا ذا الآن بين أيديكم أقص عليكم من قصصي التي عشت، وقد عدت للتو من إحدى رحلاتي التجارية في بلاد العرب، بعد أن تركت الفروسية، وصرت قائد قوافل كارمينيا التجارية لبلاد العرب.

وقد تحققت دعوة أمِّي لي عند مولدي. صحيح أنِّي لم أنتصر على جيوش تعادي المسلمين، أو أقسم أعداء الدين كما دعت لي أمِّي، ولكنَّ الله شاء لي أن تُشرق بي شمس الإسلام في كارمينيا، وأن أسترد الأرض التي أخذها الجراد من أبي وأهله.

- ولماذا آثرت شُريْقة على العودة إلى سولين، يا إمام؟

- إنِّي وفَّيت بوعدي للمَلك والمملكة، والملك وفَّى لي بوعده بأن زوجني أميرتي الجميلة: آيو؛ ولقد خيرني الملك بين أن أعيش في شُريقة، وأن أعود إلى سولين -وكلتاهما تحت سيادة كارمينيا- ولكنِّي اخترت شُريقة، فشُريقة هي موطن آيو ومُقام أبيها وأمِّها، أمَّا أنا فموطني هو أميرتي آيو، وحيثما أقامت فهذا هو الوطنُ.

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ.



تمَّ الكلامُ وما كَمُل

تمَّ الكلامُ ورَبُّنا محمود...وله المكارمُ والعُلا والجودُ

ثُمَّ الصلاة على النّبيِّ محمدٍ...ما ناحَ قُمريٌّ وأورَقَ عودُ

والله غالبُ
على
أمره

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

قد تحسب أن البلاء قد خُلِق لك وحدك، وأنَّ الباب لم يُخلَق بمفتاح؛ قد تحسب أن الله قد تركك، أو أنَّك لست أهلًا لأن يكون معك؛ قَد تحسب وتظن بالله الظنونَ في أوقات البلاء، ولكنَّك لو صبرت، لعلمت أنَّ الله يختبر الصادقين بالبلاء، كما يُختَبر الحديد بالنار، وأنَّ الله يعدُّ العباد لأمر -وهو الغالب على أمره- هو بالغه، ولكنَّ العبد لن يبلغه حتى يبلغ أشده، ويستوي كما تستوي الفاكهة، فيعلم الحكمة من كلِّ هذا؛ (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا).

إنَّ الله الذي نادى نبيه موسى -عليه اسلام- في نبوته: (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ)، هو -سبحانه- الذي ابتلَاه، وقصَّ عليه ما ابتلاه به من قبل حين ناداه بجانب الطور الأيمَن بعد أن طلب موسى منه أنْ يحفظه من فرعون، وقال له: (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى)، (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)، (وَاصْطَنَعتُكَ لِنَفْسِي).

كلُ ما يتطلبه الأمر هو بعض الصبر، وأنْ تُحسِنَ الظنَّ بربِّك كما فعلَ نبيه يوسف -عليه اسلام- وأن تعلم أنَّ اللهَ لطيفٌ لِما يَشاء...وأنَّهُ هو العليم الحكيم.